بلورة الحكايات

© حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: بلورة الحكايات

تـأليـــــــف: ياسر موسى

تدقيق لغوي: مريم توركان

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 21X14

سنـة النشـر: 2025

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 31744 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 683 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-683-8

بلورة الحكايات

مجموعة قصصية

ياسر موسى

إهداء

إلى كل مقاوم من أجلِ حُرّيته،

مَن قاومَ دفاعًا عن عقيدته وأرضه.

إلى أهل العِزّة والمنعة والقوة.

إلى كُلّ متمسك بتاريخه وأصوله،

اعلم أنَّ هناك مَن عانى مثلك،

وفي النهاية الجنّة، أو النصر والجنّة.

إليكم فقط..

شكرًا لكم.

المقدمة

بسم اللَّه والصلاة والسلام على رسولِ اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، قد شرعتُ في كتابة هذهِ المجموعة القصصيّة مُنذُ فترةٍ طويلة من الزمن، ولكنْ لم يتسنَّ لي طباعتها، قدمت قدمًا وأخرت أُخرى، خوفًا من كتابة القصص الدينية، فلم أكن أُريد أنْ أتصدى أدبيًا لقصصٍ من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي، ولكن ما جعلني أكتب باكورة هذهِ المجموعة، التي أرجو من اللَّهِ أنْ يرزقني خيرها سببين،

الأول:

الجهل بتاريخنا وأبطالنا، والقصص الهادفة، فحاولت قدر إمكاني تبسيط الأحداث، والالتزام بنصوص تاريخية مثبتة مع بعض التدخل الأدبي غير المُخلّ.

الثاني:

ما نشعر بهِ جميعًا من استبدال القدوة العربية الإسلامية، بأُخرى أجنبية خيالية وقصص خرافية، في وجود القصص العظيمة الحقيقية في تاريخنا.

وأرجو من اللَّهِ _سُبحانَهُ وتعالى، أنْ يتقبّل هذا العمل أولًا قبل كل شيء، وأن يرزقنا خيره ويسامحنا على تقصيرنا.

ومن ثَمَّ أنْ ينال هذا العمل إعجاب من يقرأه؛ ليستفيد منه في خير، بمعلومات أظنّها غير معروفة للكثيرين من القُراء، حتّى أنا كُنت لا أعرف الكثير منها، إلى أن شرعت في البحث والكتابة.

كان اعتمادي الأساسي في المعلومات والسياق، أولًا من القرآن الكريم ثُمَّ من كتاب

(البداية والنهاية) لابن كثير _رحمهُ اللَّه، و(السيرة النبوية) لابن هشام، وبعض المراجع الأُخرى والمقالات.

هذهِ المجموعة موجّهة للنشء، كما أنَّها تصلح للكبار بما فيها من معلومات وأسلوب سهل ويسير إنْ شاء اللَّهُ تعالى.

وأُعيد الإشارة أنّ الكتابة أدبية، بها ما يجول في خيال الكاتب، وما يُحتمهُ السياق الأدبي الدرامي، مع عدم الإخلال بالخطوط العريضة التاريخية المثبتة، مع اختياري في بعض الأحيان لسياق درامي، هو الأقرب للإثبات من طرف العلماء والأقرب لقلبي، مع الاعتراف بوجود بعض المناحي المختلف عليها في بعض الأحيان، تمت الإشارة إليه في خاتمة كل قصة.

والحمدُ للَّهِ ربّ العالمين.

أصحاب الأخدود

تبدأ أحداث هذهِ القصة في أرض (نجران) جنوب الجزيرة العربية، في الوقت الزمني بين بعثة عيسى _عليه السلام، ومحمّد _عليه الصلاة والسلام، وكان أهل (نجران) في ذلك الوقت أغلبهم من المشركين، الذين يعبدون الأصنام من دون اللَّه، يتعلّمون السحر ويطلبونهُ في كل مكان.

في ذلك الوقت استقر ساحر عظيم بأرض (نجران) بطلبٍ من أهلها، ليعلّم أبناءهم السحر، ليصبحوا فيما بعد في مثل قوته وعظمته.

وبعد مداولات كثيرة وافق ذلك الساحر على البقاء بين ظهرانيهم في المدينة، ليبدأ كل من لديهِ طفل في إرسالهِ إليهِ؛ ليُعلّمهُ السحر بأنواعهِ مقابل مبلغ كبير من المال.

من بين أهل تلكَ المدينة هناك رجلًا يدعى (الثامر)، لديهِ طفل أطلق عليه (عبد اللَّه)، لم يتأخر (الثامر) عن إرسال ابنه ليتعلم السحر؛ طمعًا في مستقبل باهر لابنه ولنفسه.

بدأ (عبد اللَّه) في تعلّم السحر بالمدرسة الخاصّة بذلك الساحر، يذهب إليهِ كل صباح ليبقى عنده حتّى المساء، يتعلم منهُ السحر وألاعيب السحرة وحيلهم، ليبدأ في التساؤل بينه وبين نفسه عن جدوى تلك الحيل والألاعيب، عن ذلك الكذب البواح والسعي في الخراب والأذى فقط، فطرته السليمة طرحت على نفسه العديد من الأسئلة:

_كيفَ يكون الساحر على حق، وهو لا يستطيع إلَّا القيام ببعض الحيل؛ لتفريق الزوج عن زوجته؟

خدع أبصار الناس بأوهام هي ليست في الحقيقة بشيء؟

جعل غيره يتخيلون أوهام للحصول على المال والشهرة فقط؟

إنَّ ما يفعلهُ ذلكَ الساحر هو شيء يضر ولا ينفع، يكذب ولا يصدق، ألا يوجد شيء ينفع ولا يضر؟

ظلّ (عبد اللَّه) يتساءل عن ذلكَ كثيرًا، حائرًا دونَ إجابةِ واضحةِ، يعلم أنَّ ذلكَ كلّه خطأ وباطل، ولكنَّهُ في الواقع بارع جدًّا في التعلم، في طريقه ليصبح ساحرًا عظيمًا.

بينما يسير يومًا ما في طريقه المعتاد، لفت انتباهه نصب خيمة جديدة في مكانٍ غير معتاد بالنسبةِ له، غلبهُ الفضول ليرى ذلك الساكن الجديد في مدينتهِ الصغيرة.

اقتربَ على مهل وحذر من الخيمة، ليسمع صوتًا لها، فوقع السحر على قلبه، اقترب أكثر وبدأ في الاستماع لكلمات الشيخ الكبير، الذي يحيا وحيدًا ليتعبد لإلهٍ غير إله (عبد اللَّه)، بصوتٍ عذبٍ وكلمات ما أجملها! وقع في قلبهِ حبها، وزاد فضوله عن الحدّ.

ظلّ يخرج مُبكرًا من منزلهِ يوميًّا؛ ليستمع إلى ذلكَ العابد الغريب، ويشتاق طوال اليوم ليعود فيسمعه في طريق العودة مرّة أُخرى، وتداعت علي روحه الأسئلة:

_مَن أنت؟

مَن إلهك؟

من أينَ تأتي بهذهِ الكلمات الجميلة، التي تأسر القلب قبلَ الآذان؟

لماذا لا تسجد لصنمٍ مثلنا؟ الكثير والكثير من الأسئلة التي لا إجابةَ لها.

قرر في لحظة أنَّهُ لا بُدَّ من المواجهة، فذهب مباشرةً إلى ذلك العابد ليسأله:

_مَن أنتَ أيُّها الرجلُ الكريم؟

فأجابهُ الرجل قائلًا:

_أنا عبدٌ من عباد اللَّه، أتيتُ إلى مدينتكم مُنذُ بعض الوقت، وأقمت في هذا المكان لأتعبد إلى رَبّي.

فسأله عبد اللَّه:

_ولكني أستمعُ منكَ إلى كلمات عجيبة، يوميًّا عند ذهابي وإيابي، فما هذهِ الكلمات؟

فأجابهُ:

_إنَّهُ كلامُ الربّ، أنزلهُ على نبيهِ عيسى.

فسألهُ عبد اللَّه:

_مَن هذا الربّ الذي تقصد؟

هل هو إله كآلهتنا التي نعبد؟

فقال الرجل:

_لا، إنَّ ربي هو ربّ الناس جميعًا، وكل هذهِ المخلوقات من صنع البشر، وأيضًا تلك الآلهة المزعومة من صنع أيديكم أنتم، لا تنفع أو تضر، ولكنَّ ربي ربّ الناس جميعًا، هو مَن ينفع ويضر، هو مَن يُحيي ويُميت، هو ربي وربّ جميع المخلوقات، إنسان أم حيوان، أم نبات، فهو الجدير بالعبادة، هو ربٌّ واحدٌ لا شريكَ لهُ.

تحيّرَ عبد اللَّه ممّا يسمع، فهي كلمات لم يسمعها من قبل، ورب لم يعلم عنهُ شيء من قبل، فسأله:

_إنَّ حديثك هذا غريب وعجيب لم أسمع بهِ من قبل، هل تقصد أنَّ هُناكَ ربّ وإله واحد لكل هذا الكون؟

واحد فقط لكل الناس؟

أجابهُ الرجل في هدوء:

_أجل، إنَّهُ إله واحد لا شريكَ له، ولا نظير لهُ في السماوات والأرض، يملك كل شيء، بيدهِ المُلك والعرش، ليسَ كمثلهِ شيء، يُحيي ويُميت وهو علي كل شيءٍ قدير.

سكت عبد اللَّه قليلًا وهو يفكر في كلمات هذا الرجل، إنَّ كلماتهِ تتناسب مع فطرته وتفكيره، إله واحد في هذا الكون هو الشيء الوحيد المنطقي، كثرة الآلهة تؤدي إلى نشوب صراع فيما بينهم، فيفسدون السماوات والأرض في صراعاتٍ بعيدة عن البشر، آلهة للخير وأُخرى للشرّ تتلاعب بالبشر والمقدرات!

إله واحد هذا هو الحقّ، إله يتحكم في كل شيء، إله رؤوف رحيم، كل هذا يتناسب مع أفكارهِ ولكنْ يُخالف كل ما سمعهُ وتعلّمهُ ونشأ عليهِ، يُريد أنْ يعلم ما هوض الحق، فسأل مرّة أُخرى:

_ولكن أهلي والساحر العظيم، لم يخبرونا من قبل أيّ شيءٍ عن هذا الإله؟

فأجابهُ العابد، وهو يعلم أنَّ عبد اللَّه قد بدأ رحلته للإيمان:

_إنَّ الضلال قد انتشر في الأرض يا صغيري، انتشر الكفر في كل مكان، وإنَّ السحر من الشرك باللَّه، لذا فانتشار السحرة يؤدي إلى التحريض على الكفر، والبُعد عن الربّ الحقيقي الواحد لهذا الكون.

فأسرعَ عبد اللَّه مُتسائلًا:

_وما الذي يفعلهُ هذا الإله ليوجّه البشر إلى وجوده؟

ابتسمَ العابد قائلًا:

_ إنَّ اللَّه يرسل الرسل والأنبياء في أماكن متفرقة من العالم؛ ليقوم هؤلاء الأنبياء بالدعوة إليهِ وتعريف الناس بوجوده، وحثّهم على العودة للإيمان بهِ سُبحانَهُ وتعالى بعد عصيانهم وابتعادهم عن صراطهِ المستقيم.

وسيأتي اليوم الذي يُحاسب فيهِ الناس على أعمالهم، فمَن يعمل خيرًا يجد خيرًا ويدخل الجنّة، ومَن يعمل شرًا يجد عقابًا ويدخل النار، والعذاب المقيم.

فسأل عبد اللَّه:

_هل معنى هذا أنَ الساحر العظيم، الذي نتعلم عنده لا يؤمن باللَّهِ العظيم الواحد ويخدعنا؟

أجابهُ العابد:

_أخبرتك يا عزيزي أنَّ السحر شركٌ باللَّهِ الواحد، وهو من المحرمات، لأنَّهُ يضر ولا ينفع، ويؤذي الناس بغير وجه حق، كما يُعدّ تدخلًا ليغيروا بهِ النظام والأقدار كما يظنون! ولكنَّ اللَّهَ يمدهم في طغيانهم ليحاسبهم بعد ذلك، فلا بُدَّ وأنْ نترك السحر ونبتعد عنه.

نعم ذلك الساحر يكذب عليكم؛ لأنَّهُ يستفيد بأموالكم ومكانته عندكم وفقط.

ظلّ عبد اللَّه يتحاور مع العابد، يتكلم معهُ عن اللَّه وعن المسيحيّة الحقّة، عن الكون وعن كل الأمور التي يريد معرفتها، حتّى تأخر الوقت فانصرف مسرعًا على وعدٍ بلقاءٍ آخر.

كانَ عبد اللَّه يذهب يوميًّا مبكرًا إلى العابد، ليتحدث معهُ ويأنس بهِ وبكلماته الجميلة العفيفة، ثُمَّ يذهب إلى الساحر بعد ذلك، لكنَّ الساحر كان يُعاقبهُ على التأخير، فيعود متألمًا إلى العابد مساءً فيسأله:

_مما تتألم يا عبد اللَّه؟

ردَّ عليه:

_الساحر يعاقبني بالضرب على تأخيري يوميًّا.

_حاول أنْ تاتي مبكرًا وتذهب إليهِ دونَ تأخير مرّة أُخرى.

قالها العابد.

ابتسمَ عبد اللَّه، وقال:

_لا بأس كل شيءٍ يهون في سبيل الحق ومعرفته يا أخي الكريم.

ظلّ عبد اللَّه يتردد على العابد لفترة من الزمن، ويتحاور معهُ ويسأله، بدأ قلبه يميل لاعتناق المسيحية كدين الحق، وفطرته تذهب إلى الاستنتاج بأنَّ إله هذا الكون هو إله واحد، ولكن.. يريد أنْ يطمئن قلبه للإيمان، بحث عن الفرصة حتّى أتت إليهِ في يوم من الأيام على طبق من ذهب .

في أحد الأيَّام، ظهر حيوان غريب ضخم ليس لهُ مثيل في منتصف الطريق، حاول الناس إبعاده أو حتى قتله، ولكن لم يستطع أحد بالقيام بتلك العملية، هابهُ الجميع، وتوقفت حركة السير في ذاكَ الطريق خوفًا من الحيوان العظيم الشرس.

قال عبد اللَّه بينه وبين نفسه:

_سأعلم اليوم إن كان العابد على حق أم لا؟

ها هي الفرصة التي كنت أنتظرها.

أمسكَ بيدهِ حجرًا، وقال بصوتٍ مرتفع:

_اللهمَّ إن كان العابد على حق، ودينه دين الحق، وأنت إله واحد، فأقتل هذا الوحش بهذا الحجر.

وقذف بالحجر نحو الحيوان الضخم، فأصابهُ فمات على الفور.

إنّها إرادة اللَّه ليهدي عبده الشاب، ولتبدأ ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ وأكثرها إيمانًا وقسوة!

عند هذهِ اللحظة تيّقن عبد اللَّه أنَّ العابد علي دين الحق، وأنَّ اللَّه واحد، فهذه المعجزة وقعت أمام عَينيهِ لهدايته، وهي منحة من اللَّهِ لا يهديها إلَّا للمخلصين في سرائرهم.

اتجه عبد اللَّه مباشرة إلى العابد، باسم، ضاحك، مستبشر الوجه، وانطلق بينَ يديه ليعلن عن إيمانهِ باللَّهِ _عزَّ وجلّ، الواحد الأحد الذي لا شريكَ لهُ ولا ولد.

مُنذُ ذلكَ الحين، قرر عبد اللَّه عدم الاستمرار في الشرك الملقب بالسحر على يد الساحر العظيم، فانقطع عن الذهاب إليهِ وأصبح يذهب إلى العابد يوميًّا؛ ليتعلم منهُ أحكام الدين الحق، ويتأملان معًا في ملكوت اللَّه العظيم، والإيمان بالحق والتعبد له.

لاحظ عبد اللَّه شيئًا غريبًا على تصرفات العابد، لاحظ أنَ العابد كلما دعا اللَّه بشيءٍ ما، فإنَّ الكثير منهُ يتحقق، إنَّهُ يتمتم ببعض الكلمات بصوتٍ خفيض فيُستجاب لدُعائهِ على الفور في الأغلب الأعمّ.

سأل عبد اللَّه العابد يومًا:

_يا سيدي، كيفَ يستجيب اللَّه لدعائك كلما دعوته؟

فأجاب العابد:

_يا عبد اللَّه هناك دعوات مستجابة للإنسان، تعتمد على العلاقة بين الإنسان وربّه.

_كيفَ ذلك؟

كلما زاد إيمانك باللَّهِ تعالى، وتنفيذك لأوامره والبعد عن نواهيه، فإنَّ اللَّه يستجيب الدعاء.

_وهل من شروط أُخرى لإجابة الدعاء؟

أجل يا عزيزي، لا بُدَّ وأنْ يكون مأكلك ومشربك من حلال، وتبعد عن المحرمات، وتكون دعوتك دعوة طيبة لا يراد بها شر أو أذى، واترك الباقي على ربّك وهو عليهِ إجابة الدعاء.

_وهل هناك طريقة مؤكدة لإجابة الدعاء؟

يُقال يا عبد اللَّه أنَّ للَّهِ اسمًا أعظمًا إذا دُعي بهِ أجاب.

_وما هو هذا الإسم؟

لا أعلم، فلا يعلمه إلَّا قليل من البشر، لست أنا منهم.

ظلّ عبد اللَّه يُفكر في كلامهِ مع العابد، ولكن ذلك لم يُعطله عن دراسة الدين المسيحي، والتفكر في ملكوت اللَّه، وبدأ في تطهير مأكله ومشربه وأفكاره من كل حرام، والتعبد للَّهِ مخلصًا لهُ في العبادة.

ولكنَّهُ أيضًا تعلم أنْ يدعوا اللَّه دومًا، لعله يكن مستجاب الدعوة، كانتْ الفكرة تغزو قلبه وعقله، بأنْ يستفيد من إجابة الدعوات في تعريف أهل قريته بالمسيحية.

قام عبد اللَّه بالدعاء دومًا في كل شيء، وكلّه أمل بأنْ يكون مستجاب الدعوة، قام بكل شيءٍ لينقي قلبه وبدنه من الأوثان والشرك، النية كانت خالصة للَّهِ تعالى، لاحظ العابد عليهِ ذلك كلّه، لاحظ أنَّهُ بالفعل أصبح مُجاب الدعوة من عند اللَّه، فجلس معهُ يومًا، وقال:

_يا عبد اللَّه إنّ لنا أنا وأنت الكثير من الوقت، نتعبد ونسعى للتأمل والتفكر في ملكوت اللَّه.

_أي واللَّه، إنها أجمل ما حدثَ لي سيدي، والحمدُ لِلَّهِ على نعمة الإيمان.

ألاحظ أنَّك تدعو اللَّه كثيرًا في أشياء دنيوية.

_نعم.

يا عبد اللَّه، اجعل دعواتك للآخرة ولنفسك؛ لعل اللَّه يغفر لك ويدخلك جنّة النعيم.

_يا سيدي، إني وهبت نفسي للدعوة إلى اللَّه، لأنَّ الناس لن يقتنعوا بالكلمات فقط، فلابد لهم من أشياء حسية، أنا أدعو اللَّه لكي يؤمن معي الكثير.

نظر إليهِ العابد قائلًا:

_سأحذرك، يا عبد اللَّه، إنَّ إجابة الدعوة كما أنها شيء عظيم ومفيد، ونعمة إلاهيّة وهبة، في بعض الأحيان من الممكن أن تصبح اختبار ونقمة.

_كيف ذلك؟

إنْ لم تستخدمها للخير، أو اغتررت بنفسك ولم تشكر ربك، قد تضل يومًا ولن ينفعك شيء، فاحذر من الشَّيطان.

_لعل اللَّه يحميني يا سيدي من شر نفسي.

مُنذُ ذلك اليوم نذر عبد اللَّه نفسه لخدمة الناس، والدعوةً إلى اللَّه، فأصبح يبحث عن أيّ محتاج ويذهب إليه، ويساعده قدر إمكانه بقوته، فإن لم يستطع فبدعوته.

وبدأ صيته يذيع سريعًا في القرية والمدينة، بأنَّهُ يملك قدرات هائلة في مساعدة غيره من البشر، خاصة في حالات المرضى، فكانت دعوته للَّهِ _سُبحانهُ وتعالى، كفيلة بأن يشفي بها اللَّه المرضى.

ظنَّ الناس في البداية أنَّهُ لساحر عظيم، يشفي المريض، وذاع صيته، وعندما يتسبب في شفاء المريض كان يقول له:

_هل تعلم كيف تم شفاؤك؟

عن طريق سحرك أيُّها الساحر العظيم.

_لا وربي، إنَّهُ ليس سحرًا، إنَّهُ إلهي العظيم، ربي هو مَن شفاك، وما أنا إلَّا وسيلة لذلك.

كيفَ ذلك وهل إلهك غير آلهتنا؟

فيبدأ عبد اللَّه في الدعوة للمسيحية، وتذكير المريض وأهله باللَّهِ الواحد الأحد، ويظل يتحدث معهم حتّى يؤمنوا باللَّهِ الواحد، ويدخلون المسيحية أفواجًا.

ذاع صيت عبد اللَّه وزاد أتباعه، وأصبح المؤمنين كثيرين على يديه، وانتشرت أخباره في كل مكان، وخرج صيته عن قريته لينتقل إلى كامل أنحاء البلد، حتى جاءت اللحظة التي غيرت مجرى التاريخ بأكمله.

لقد سمع بهِ وبدعوته، وقدرته على شفاء المرضى أحد الوزراء الكبار في الدولة، والمساعد الرئيسي للملك.

كانتْ نجران في ذلك الوقت يحكمها ملك مشرك طاغية، وحوله من الجند والأتباع الكثيرون، ممن يطيعون أوامره في التنكيل وتعذيب أفراد الشعب، وفرض الوثنية، وجعل من نفسهِ إلهًا على الأرض!

كان هذا الوزير لديه ابنة شابة مريضة، لا تقدر على الحركة أو الكلام، وحار أطباء البلد وسحرتها في مرضها، ولم يستطيع أحد شفائها، وكان الوزير يحب ابنته حُبًّا جمًا، فجلب لها الأطباء والسحرة من كل مكان، ولم يفلح معها أحد، وعند سماعه بسيرة

عبد اللَّه وقدرته على الشفاء، قرر استدعائه لعل وعسى أنْ يشفيها بقدرته الخارقة، التي يتحدث عنها الناس.

وبالفعل استدعاه في قصره الكبير، فذهب إليهِ عبد اللَّه، وهو يتحين الفرصة لمحاولة انضمام ذلك الوزير إلى الدين الحق، لعله يجعل دعوته أكثر انتشارًا.

وقفَ بينَ يديه فقال لهُ الوزير:

_لقد سمعت عنك الكثير يا عبد اللَّه، وعن قدرتك على شفاء المرضى، فأنت إمَّا طبيب ماهر أو ساحر عظيم، إنَّ ابنتي مريضة مُنذُ عدة سنوات، ولم يستطيع أحد شفائها فهل تستطيع أنت؟

فقال عبد اللَّه:

_ما أنا إلّا عبد من عباد اللَّه، بيدهِ هو الشفاء ولست أنا مَن يشفي. ألك إله آخر غير مَن نعبد؟

_أجل إنّ ربي اللَّه، هو الذي يُحيي ويُميت، بيدهِ القدرة على كل شيء.

فهل يستطيع إلهك شفاء ابنتي؟

_إنّ اللَّه على كل شيءٍ قدير، فما علينا إلَّا الإيمان بهِ والدعاء، لعله يشفيها إنْ شاء.

بدأت بوادر الأمل تغزو أركان الوزير، فقال متلهفًا:

إذًا ادعو إلهك ليشفي ابنتي؟

_هل إذا شُفيت ستؤمن باللَّهِ الواحد الأحد؟

سكت الوزير قليلًا، ثُمَّ قال بصدق:

_إن كان كل البشر والكهنة عجزوا عن شفائها، وشفاها إلهك فهو الإله الأحق بالإيمان، ولا بُدّ أنَّهُ ربّ هذا الكون حقًا وأنا أوّل المؤمنين به.

قام عبد اللَّه من فوره للصلاة، والدعاء إلى اللَّه لشفاء ابنة الوزير، ظلّ بجانبها عدة أيّام يرعاها، وفي صباح أحد الأيام استيقظ القصر بأكمله على فرحة لا مثيل لها!

_لقد شُفيت الابنة وبدأت في التحرك والكلام.

استدعى الوزير عبد اللَّه، وقال في فرحة شديدة:

_إني آمنت بربك يا عبد اللَّه، فعلمني عنهُ وعن دينك، لعل اللَّه يغفر لي أخطائي؟

بدأ عبد اللَّه في الانطلاق في دعوته بمنطلق جديد، تحت حماية الوزير، الذي لم يستغرق وقتًا حتى غزا الإيمان قلبه وامتلأ بهِ.

وصل إلى مسامع الملك شفاء ابنة الوزير على يد عبد اللَّه، الذي كان قد سمع عنهُ أيضًا بقدرته على شفاء الناس.

فاستدعى الملك الوزير ليقف بين يديه، وقال له:

_هل حقًّا شفيت ابنتك؟

فقال: نعم يا مولاي.

فقال: مَن شفاها؟

في هذهِ اللحظة تردد الوزير، فإن أخبر الملك هلك، وإن لم يخبره عذبه الملك. فقال في خشوع:

_اللَّهُ ربي هو مَن شفاها.

فاستشاط الملك غضبًا، وقال بصوتٍ قوي:

وهل لك من إلهٍ غيري؟

_إلهي وإلهك اللَّه الواحد الأحد، لا شريك له وهو على كل شيءٍ قدير.

قال الملك متوعدًا:

لئن لم تنتهِ وتعد إلى عبادتي وآلهتنا السابقين، لأعذبنك عذابًا لم أُعذبه أحدًا من العالمين.

أجاب الوزير في ثبات المؤمن:

افعل ما شئت، فواللَّه لا أعود عن ديني ولو وقفت الدُّنيا كلها في طريقي.

استشاط الملك غضبًا على غضب، وأمر بتعذيب الوزير حتّى يعود عن إيمانه.

ولم يكتف الملك بهذا، بل استدعى أيضًا عبد اللَّه ومعهُ العابد.. وعند مثولهم بين يديه سأل:

_مَن أنتَ أيُّها العبد؟

فأجاب عبدا بثبات:

أنا عبد اللَّه من عباد اللَّه.

_أتقصد إلهًا غيري؟

إنَّ اللَّه ربي وربك ورب الناس أجمعين.

فقال الملك غاضبًا:

_لقد علمت أنك تدعو الناس إلى عبادة إله جديد، وترك عبادة آلهتنا وما كان يعبد آباؤنا.

فأجاب عبد اللَّه بثبات وجرأة:

بل أدعوهم إلى العودة إلى اللَّه _عزّ وجل، وعبادته، وترك تلك الآلهة التي لا تنفع ولا تضر، وألا يشركوا باللَّهِ أحدًا، وأن يرجعوا عن طريق الضلالة الذي يسيرون فيه.

فقال الملك لعبد اللَّه، وهو يستشيط غضبًا:

_لقد أفسدت على الناس في مملكتي دينهم ومعيشتهم، بهذا الدين الذي تدعو إليه، فإني آمرك أنْ تترك هذا الدين وهذا الإله على الفور، وإلَّا عذبتك عذابًا شديدًا أنتَ وكل مَن اتبعك.

قال عبد اللَّه بنبرة الثبات والإيمان:

لا وربّ السماوات والأرض، لا أترك هذا الدين أبدًا مهما حدث.

استشاط الملك غضبًا، وصرخ مهددًا ومتوعدًا:

_إنْ لم تعودوا جميعًا عن هذا الدين وتعودوا إلى ديني الحق، لأقتلنكم أجمعين وأعذبكم بأشد أنواع العذاب.

فأجابوا في ثبات المؤمن:
لا واللَّه لا نترك عبادة اللَّه الواحد أيًّا كانت النتيجة.
أمر الملك حراسه على الفور بإحضار منشار حاد، وأمسكوا بالوزير ووضعوه عند مفرق رأسه، ونظر إليهِ قائلًا في وحشية:
_ارجع عن هذا الدين وإلا فصلت جسدك لنصفين.
ثبت الوزير قائلًا:
لا وربي لا أعود عن الحق، بل أموت شهيدًا في سبيل اللَّه تعالى.
فأمر الملك الظالم الحرس بنشر جسد الوزير إلى نصفين بالفعل، فقاموا بذلك ولم ترق قلوبهم لصراخ الوزير، حتّى فارق الحياة شهيدًا عند ربه. ولم يلبث ذلك الملك إلا وأعاد الكرة مع العابد، فكان نفس الثبات على الحق حتّى قُطع هو الآخر إلى نصفين، وكان من الشهداء بإذن اللَّه.
ثُمَّ نظر الملك إلى عبد اللَّه، فهو المُتبّقي الآن، وقال لهُ بوحشية:
_أمَّا أنت فقد فتنت الناس في مملكتي بسحرك هذا، فإن لم تترك هذا الدين، قتلتك شر قتلة منهما على مرأى ومسمع من كل أهل القرية، حتّى يعلم الجميع أنَّكَ بشر عادي، ويعود كل من خالف ديني أو يعلم مصيره.
فهل ستعود أم أعذبك عذابًا لم أعذبه أحدًا؟
قال عبد اللَّه في ثبات وقوة:
لا وربي لا تستطيع قتلي إلا أنْ يشاء اللَّه، ولا أعود عن ديني أيًّا كانت النتيجة.

استشاط الملك غضبًا، وقال وهو يصرخ بصوتٍ هادر:

_ماذا تقول أيُّها الأرعن؟

ألم ترَ أني قد قتلت صاحبيك شر قتلة؟

فقال عبد اللَّه بصوتٍ واثق وهادئ:

ولكنك لا تستطيع قتلي إلا بأمر اللَّه وإذنه، ولا أمر لك في ذلك.

فقال الملك:

_لأقتلنك شر قتلة، وليشهد عذابك الناس أجمعين.

نادى منادي الملك في القرية، أن يتجمع الناس والعوام لرؤية إعدام عبد اللَّه، ومصير مَن يترك دين الملك إلى عبادة اللَّه الواحد.

وتجمع عدد كبير من الناس ليشهدوا على ذلك الإعدام وهذا العذاب.. فأمر الملك جنوده ليأخذوا عبد اللَّه إلى قمة جبل، ويلقوه من أعلى الجبل ليتحطم جسده بأكمله أثناء السقوط.

قام الجنود بتنفيذ أمر الملك، وصعدوا بهِ إلى أعلى الجبل، وأثناء الصعود كان عبد اللَّه يدعو اللَّه قائلًا:

اللهمَّ اكفني إيّاهم بما تشاء وكيفما تشاء، اللهمَّ اكفني إيّاهم بما تشاء وكيفما تشاء.

واستجاب اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، لدعوة هذا العبد الصالح، فعند وصولهم إلى القمة اهتز الجبل اهتزازًا شديدًا، فسقط كل مَن جاء من الجنود مع عبد اللَّه من حافة الجبل، وثبّت اللَّه تعالى قدمي عبد اللَّه فلم يسقط.

لم يهرب عبد اللَّه أو يذهب بعيدًا بعد أن نجّاهُ اللَّه من الموت، ولكنَّهُ عاد مرّة أُخرى إلى الجمع المحتشد من أجل رؤية إعدامه، وكان الجميع ينظر إليهِ بذهول: كيف نجا من هذا الزلزال؟

ومات جميع الجنود ما عداه؟

لم يعرهم عبد اللَّه اهتمامًا، بل ذهب نحو الملك الذي لم يكن أقل ذهولًا من هذا الحشد، ولكنَّهُ تمالك نفسه قائلًا في غضب:

_أين الحرس؟

كيف نجوت؟

أجاب عبد اللَّه بثقة:

لقد دعوت اللَّه أنْ يكفيني شرهم وأذاهم فكفاني، وها أنا أعود إليك ثانية، حتّى لا تخبر الناس كذبًا أنك قد قتلتني، ولأثبت لك أنّ اللَّه وحده هو القادر على موتي وليس أنت.

جُنّ جنون الملك وكاد عقله أنْ يطير غيظًا، كان لا يصدق بما قاله عبد اللَّه، فقرر أنْ يكون مقتله على مرأى من الحشود المنتظرة، فأمر جنوده بأخذ عبد اللَّه في بحيرة تمتلئ بالتماسيح التي كان يربيها، وأمرهم بأن يلقوا به وسط البحيرة، وأن يتم تقييد يديه وقدميه حتّى لا يستطيع أن يقاوم عند افتراسه.

قام الجنود بالفعل بما طلبه الملك، وأعاد عبد اللَّه دعائه المستجاب قائلًا:

_اللهمَّ اكفني إيّاهم بما تشاء وكيفما تشاء، اللهمَّ اكفني إيّاهم بما تشاء وكيفما تشاء.

لم يكد الجنود يصلون إلى منتصف البحيرة حتى كانت المعجزة! ارتجت المركب ارتجاجًا شديدًا، وسقط كل مَن عليها من جنود، وبقي عبد اللَّه مقيدًا في الأسفل، وأعادت المركب على مهل تحملها أمواج خفيفة إلى الشاطئ مرّة أُخرى.

رأى كل مَن على الشاطئ تلك المعجزة، ارتعبت قلوب الجنود، فكل مَن أراد قتل عبد اللَّه قد مات شر ميتة، أمَّا باقي العامّة فقد بدأوا يتساءلون في جديّة: أيّ إله يحمي عبد اللَّه؟ بالفعل، وتلك هي المعجزات الحقة.

عاد عبد اللَّه مرّة أُخرى إلى ذلك الملك الظالم، الذي كاد أن ينفجر من الغيظ عند رؤيته، وصرخ فيهِ بقوله:

كيف نجوت مرة أخرى؟

أجاب عبد اللَّه بهدوء:

"دعوت الله أن يكفيني شرهم فاستجاب."

فأكمل الملك مغتاظًا:

لأقتلنك شر قتلة.. لأجعلنَّ منك عبرة لمن لا يعتبر.

مرّت عدّة أيام، وكلما ابتكر الملك طريقة لقتل عبد اللَّه نجّاهُ اللَّه منها جميعًا، حتّى أصبح في حيرةٍ من أمره إلى أن نظر يومًا نحو الملك، وقال:

"أتريد قتلي؟"

فأجاب الملك مغتاظًا متلهفًا:

"بالطبع أريد قتلك كما لم أُرِدْ شيئًا من قبل."

فأجاب عبد اللَّه في هدوء:

"إذًا اجمعْ أهل المدينة أجمعين غدًا في أكبر ساحات المدينة، وسأخبرك عندها ماذا تفعل."

قام ذلك الملك الظالم بجمع العامّة، وبالفعل اجتمع كل مَن في المدينة يريد رؤية نهاية عبد اللَّه، ذلك الشاب الذي لم يستطع الملك قتله، وقام الجنود بنصب عارضةٍ خشبية، وتم ربطه في تلك العارضة. وعند الانتهاء من ذلك سألهُ الملك:

"ماذا أفعل بعد ذلك؟"

فأجابهُ عبد اللَّه بصوتٍ مرتفعٍ ليسمع العامة ما يقول:

"امسكْ قوسك وضع فيه سهمًا ثُمَّ قل: باسم اللَّه إلهِ عبدِ اللَّه، وأطلق السهم، سيصيبني وأموت."

لم يفكر الملك كثيرًا، وأسرع بإمساك قوسه والسهم، وقال بأعلى صوت:

"باسم اللَّه إلهِ عبدِ اللَّه."

وأطلق السهم مباشرةً، أصاب السهم عبد اللَّه في وجهه فمات على الفور.

وكأنَّ الملك لم يصدق موته فصرخ فرحًا، ولكنّهُ لم يحسب حساب الناس من حوله، الذين رأوا وسمعوا قول الملك، فتعالت من بينهم صرخات تقول:

"آمَنَّا بربِ عبدِ اللَّه إلهٍ واحدٍ، لا إله إلا هو، آمَنَّا بالله الواحد الأحد."

عندها أدرك ذلك الملك تلك المكيدة، التي كادها له عبد الله بدفع حياته الثمن، لكي يعلم الناس الحق ويؤمنوا باللَّهِ الواحد الأحد، وتعالت الأصوات المؤمنة باللَّهِ تعالى فلم يستطع الملك احتمال تلك الأصوات، وسقط صريعًا في تلك اللحظة ولم يُنجِهِ شيء عند قدوم أجله.

آمَنَ أهل المدينة أجمعون، وعبدوا الله على دين المسيحية الحقة، وأصبحوا يتدارسون تعاليمها، مما يصل إليهم من أخبار أو بقايا تعاليم العابد وعبد اللَّه.

في هذهِ الأثناء كان بجوار مدينتهم ملكٌ آخَرُ ظالمٌ وأكثر قسوة، كان يدعى (ذو نواس) يحكم مدينة أخرى، ولكنَّ هذا الملكَ يدين باليهودية، وكان يحارب المسيحية في كل مكان، ويحمل في داخله حقدًا وكرهًا عظيمًا للدين وأتباعه.

سمع ذو نواس بما حدث في المدينة المجاورة له، فجمع وزراءه وكبار دولته، ومَن هم على شاكلته وقال لهم:

"لقد آمَنَ أهل نجران بالمسيحية، وقد يُفسِدون علينا ديارنا فهم الأقرب لنا، فما ترون أن نفعل؟"

فقال أحدهم:

"ملكهم مات ولم ينصبوا أحدًا آخَرَ حتى الآن، وهذه فرصة لكي نضم تلك الأرض إلى ملككم العظيم، ونمنع انتشار ذلك الدين."

وافق الحاضرون جميعهم على ذلك الاقتراح، وبدأ الإعداد للهجوم والسيطرة على القرية المؤمن أهلها.

بدأ ذو نواس الإعداد للهجوم والسيطرة، وبدأ الزحف نحو أهل نجران دونَ أن يتوقعوا هذا الهجوم الغادر، ومع تلك المباغتة استطاع أهل نجران الصمود بعض الوقت أمام جحافل جيش ذو نواس، وكادوا أن ينتصروا عليه بشجاعتهم، ولكن الهجوم في النهاية كان أكبر من قوتهم، فانتصر ذو نواس على أهل نجران ودخل القرية المؤمنة.

وما لبث أن أمر جنوده بجمع أهل نجران بأكملهم، صغيرهم وكبيرهم، رجالًا ونساءً، وخطب فيهم قائلًا:

"يا أهل نجران، لقد انتصرت عليكم وأصبحتم عبيدًا لي، وإني أخيركم بين أمرين: إما أن تتركوا ذلك الدين الذي آمنتم به، أو تؤمنوا باليهودية ديني أو أقتلكم جميعًا."

فقال كبيرهم:

إنّ إلهنا واحد فلمَ لا تتركنا على ديننا وتبقى على دينك؟

فأجاب ذو نواس ضاحكًا مستكبرًا:

لا أترككم على ذلك الدين، ولا دين لكم سوى ديني. فاختاروا بين أن أترك لكم حياتكم أو أسلبكم إياها؟

فقال الناس جميعهم في صوتٍ واحد:
"واللَّه لا نترك الحق الذي رزقنا اللَّه به، وندين بدينكم الذي حرفتموه بأيديكم عن الحق الذي جاء به، وقتلكم الأنبياء بغير حق."
فقال (ذو نواس) بكل تكبر وغطرسة:
إذًا فالموت مصيركم جميعًا.. سأقتلكم جميعًا شر قتلة، لم يرَ أحد مثلها أبدًا.
ثُمَّ أمر ذلك الطاغية جنوده، أن يجبروا أهل نجران على حفر أخدود عميق عظيم لم يوجد مثله من قبل، كما أمرهم أن يجمعوا الكثير من الأغصان والأخشاب الجافة، حتى امتلأ بها هذا الأخدود العظيم، الذي سماه بذلك نظرًا لكبره غير المسبوق. وأشعل بها النيران فأصبحت نارًا عظيمة لم يُرَ مثلها من قبل! أمر جنوده بتقييد المؤمنين جميعًا في سلاسل ممتدة، ووقف أهل نجران على حدود الأخدود صفوفًا مقيدين من الخلف، ثُمَّ بدأ الجنود برمي وقذف المؤمنين في النيران ما يقرب من عشرين ألفًا، قُتلوا جميعًا بأبشع الصور حرقًا. وجلس ذو نواس الملك الظالم وحوله حاشيته من أهل مدينته، يشهدون بأنفسهم على بشاعة أفعالهم في المؤمنين، كانوا يضحكون ويتندرون وهم شهودٌ على ما يُفعل بالمؤمنين.
لم يرحموا شيخًا أو طفلًا، رجلًا أو امرأةً، ولم تؤثر بهم صرخات المؤمنين أو توسلاتهم أو دعواتهم، ولكنهم أصروا على إلقائهم في

تلك النيران العظيمة، آلاف الشهداء في تلك الأيام القليلة حتى قضوا عليهم جميعًا.

في تلك الأثناء، استطاع رجل وحيد الهرب من تلك المجزرة البشعة، وتلك الإبادة التي لا مثيل لها في ذلك العصر، وكان يدعى (دوس) وهرب في الصحراء، ولم يستطع جنود الظلم الإمساك به.

كان يفكر خائفًا: أين يستطيع الهروب؟

وإلى مَن يلجأ؟

خوفٌ وانتقامٌ وغضب، كل ذلك يعتمل في قلبه الحزين على ما أصاب قومه على يد ذلك الظالم.

وفي النهاية قرر الذهاب إلى الشمال حيث قيصر الروم المسيحي، لينتقم لإخوانه في الدين، وبعد أن استطاع المثول بين يدي القيصر أخبره القصة بأكملها.

ثم صرخ قائلًا:

"يا أيُّها القيصر، انتقم لإخوانك في الدين أهل نجران، من ذلك الطاغية القاتل وجنده الظالمين، انصر دين الرب في الأرض."

فكر القيصر ثم قال:

يا (دوس) إن بلاد نجران بعيدة جدًا عنا في اليمن، ونحن في الشام، والطريق إليكم مليء بالصحارى القاحلة، لن يستطيع جندي الوصول إلى هناك بسهولة.

ولكن اذهب إلى أرض الحبشة فإن النجاشي مسيحي، ولن يقبل بما حدث لإخواننا في الدين، وهو أقرب إلى بلادكم منا، وسأرسل معك رسالتي إليه، بأن أقدم إليه أي مساعدات يريدها في حربه مع ذلك الكافر، وسينصرك بإذن الرب.

لم يستطع (دوس) الانتظار، ومن فورهِ اتجه إلى أرض الحبشة، ومثل بين يدي النجاشي ومعهُ رسالة قيصر الروم، ثم حكى ما حدث لأهل نجران من المسيحيين المؤمنين، ثم عقب بقوله:

"يا أيها النجاشي العظيم، انصر دين الرب في الأرض وانتقم لإخوانك، وضمّ أرض اليمن إلى ملكك واحكم فيها بالعدل، فإنَّ (ذو نواس) طغى وبغى، ولا بدّ وأن يهزمه اللّه على يديك في هذهِ الحرب المقدسة."

كان النجاشي يستمع إلى دوس وهو غاضب أيما غضب، ثم قام عن مجلسه قائلًا بصوتٍ يقطر حزنًا وألمًا:

لبيكم يا شهداء الله، ورب هذا الكون لا يهدأ لي بال حتى أقتل ذلك الطاغية وجنده أجمعين، وانتقم لإخواني من أهل المسيح.

أمر النجاشي بإعداد الجيوش العظيمة، التي ستركب البحر إلى أرض اليمن، فجمع جيشًا يربو على السبعين ألفًا وأمدهم بالسلاح والعتاد والمؤن، وأضاف إلى ذلك الجيش الفيلة المقاتلة المدربة، التي تتميز بها أرض الحبشة وترهب أعدائها، وجعل على رأس الجيش أعظم قواده وأمهرهم، يدعى (أرياط).

وجعل نائبه القائد العظيم (أبرهة)، وانطلق الجيش على عجل يحمل في طياته الغيرة على المسيحية، ورغبة الانتقام للمؤمنين.

وبالفعل وصلت جحافل جيوش الحبشة إلى أرض اليمن، لتفاجئ ذلك الطاغية (ذو نواس) وتلتقي معه في معركة عظيمة، أبلى فيها أهل الحبشة بلاءً عظيمًا وانتصروا على ذلك الطاغية.

كانت هزيمة (ذو نواس) وجيشه هزيمة نكراء لم يترك الأحباش لهم مفرًا، بل كانوا يقضون عليهم جميعًا، فحاول (ذو نواس) الهرب نحو البحر؛ خوفًا من المصير المجهول الذي ينتظره بعد تلك الهزيمة، ودخل بفرسه إلى البحر، ولكن البحر ارتفعت أمواجه ليغرق ذلك التعيس، ويذهب إلى لقاء ربه ليُحاسب على أفعاله، ويعذبه الله تعالى كما وعد سبحانهُ في سورة البروج.

وأتم الله نصره على المؤمنين، الذين جاؤوا من الحبشة للانتقام من قتلة أصحاب الأخدود بقيادة القائد العظيم أرياط.

فرح النجاشي أيما فرح بهذا النصر العظيم، فأرسل التهاني إلى (أرياط) وعيّنه ملكًا على أرض نجران، مكافأة لهُ على ذلك النصر العظيم، وجعل (أبرهة) نائبًا له في الحكم، ولكن نيران الغيرة والحقد أوغرت صدر (أبرهة)، لينتهي فصل أصحاب الأخدود، ويبدأ فصل آخر من الحكاية، عن صراع الخير والشر في قصة أصحاب الفيل.

خاتمة

هذهِ القصة وجدت لعبد الله في القصص الإسلامية من كتاب ابن كثير (البداية والنهاية)، الذي اعتمدته كمصدر متكامل لهذه القصة الصحيحة، والتي إليها حديث رسول الله _صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلّم، ووجد لها الكثير من الإخراجات، ولكني اعتمدت في سردي على رواية ابن عباس رضي اللَّهُ عنه.

وللأمانة، هناك بعض الروايات التي تخبرنا أن هذهِ القصة لم تجر أحداثها في نجران، ولكنها الأقرب إلى نفسي نظرًا للأحداث التالية لها.

ووجدت أيضًا بعض الشبه بينها، وبين قصة القديس أبانوب في الديانة المسيحية، من حيث وجود الفتى الذي سمي في الإسلام بعبدالله وفي المسيحية بأبانوب، مع عدم احتواء الرواية المسيحية على ارتباطه بقصة أصحاب الأخدود.

وقد ذكر الله تعالى في كتابهِ الحكيم، قصة أصحاب الأخدود في القرآن الكريم حيث قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)}

صدق الله العظيم

أبرهة الحبشي

بعد أن انتصر (أرياط) على (ذو نواس) استتب له الأمر على اليمن، فأصبح هو الملك ويتبع للنجاشي في الحبشة، وكان (أبرهة) نائبًا (لأرياط) وظل الحال هادئًا لعدة سنوات، حتّى طمع (أبرهة) في الحكم والمُلك.. فبدأ ينظم أموره لخلع (أرياط) والتولي هو المُلك في اليمن.

بدأ (أبرهة) في جمع أتباع له من الجند والجيش الحبشي، وبالفعل انضم إلى (أبرهة) الكثير من الجند، وبقي مع (أرياط) أكثرية الجند، وعلم (أرياط) بما يحدث من وراءه فأعدّ الجند الحرب، التي كان يثق أنها سوف تنتهي بالنصر له.

عندما علم أبرهة الحبشي بذلك اجتمع مع قواده وقال لهم:

لقد علم (أرياط) أننا على وشك خلعه والقضاء على ملكه.

فقال أحد القادة:

ولكننا لم نكمل الاستعدادات بعد.

وقال آخر:

أجل وجندنا لا يزالون قليلين بالنسبة لعدد جنود (أرياط)، فلا بدّ وأن نجد حلًا قبل أن يتحرك إلينا.

فكر أبرهة قليلًا ثُمَّ قال:

إنّ أرياط يخشى غضب النجاشي، وهو لا يعلم قوتنا الفعلية وهذا في صالحنا، سأحاول حل هذهِ المعضلة وأرسل له رسالة أطالبه

فيها بأن يبارزني رجلًا لرجل، وفي هذهِ الحالة لا بدّ وأن يوافق إنقاذًا لشرف الفارس، وتفاديًا لغضب النجاشي إذا تقاتل الجيش مع بعضه البعض.

فقال مساعده بسرعة وقوة:

هذا هو الحل فسوف يوافق حتّى لا يقال إنَّهُ خائف من أبرهة العظيم.

ضحك الجميع وأعدّوا الرسالة التي سوف يرسلونها لأرياط، وهم يثقون في فوز أبرهة القائد العظيم.

اقترب أرياط مع جنوده للقضاء على أبرهة وجيشه الذين جمعهم، وخرج أبرهة لملاقاته وبدأ كل من الفريقين يستعد للنزال الكبير.

أثناءذلك، وقبل التحام الفريقين في معركة كبرى، وصلت لأرياط رسالة أبرهة وفتحها وقرأ فيها:

"من أبرهة إلى أرياط، إنَّكَ لا تقبل بأن يتحارب جنود الحبشة مع بعضهم البعض، فيموت في هذهِ المعركة الكثيرون من جنودنا، ولكني أتحدّاك في مبارزة بيننا نحن الاثنين، ومَن يقتل منا الآخر يأخذ الجند كلهم دون أيّة إصابات."

قرأ أرياط الرسالة وفكر جيّدًا، فإذا رفض هذا العرض يظهر أَنَّهُ خائف من مبارزة أبرهة، وفي نفس الوقت، لا يريد أن يقال أنَّ أرياط لم يرضَ بحل يحقن دماء الأحباش، فأرسل الرد على رسالة أبرهة وقال فيها:

لقد أنصفت يا أبرهة وعدلت في مطلبك هذا، فلنتقابل رجلًا لرجل، والفائز يفوز بكل شيء، والخاسر يخسر كل شيء.

وصلت الرسالة إلى أبرهة ففرح بهذهِ الموافقة كما توقعها، وفي اليوم التالي تراص الجيشان في مواجهة بعضهما البعض.

خرج أبرهة ومعهُ أحد جنوده ومساعديه (عتوده) ليحمي له ظهره، وخرج له أرياط فوقف الاثنان كل منهما ينظر للآخر، أبرهة بقامتهِ القصيرة الممتلئة، وأمامه أرياط الطويل العظيم الهيئة، ووقف الجيش بأكمله يترقب ما سوف يحدث في هذهِ المعركة الفاصلة.

تقدم أرياط وهو ممسك بحربته الطويلة، التي كان يحارب بها دومًا نحو أبرهة، وظل يلوح بها وأبرهة يحاول تفادي الحربة القاتلة، ولكنّ أرياط كان ماهرًا جدًا فأصاب بحربته وجه أبرهة، فجرحت حاجبه وأنفه وعينيه وشفته (ولذلك سُمّيَ أبرهة بالأشرم). وبينما يستعد أرياط لقتل أبرهة بعد سقوطهِ أرضًا من قوة الإصابة، غدر (عتوده) بأرياط وضربه بسيفٍ في ظهرهِ دونَ أن يدري، ومات أرياط بهذه الطريقة الغادرة.

كاد جنود أرياط بدء الحرب لهذه الخيانة، ولكنهم لم يريدوا قتل بعضهم بعضًا، بعدما لم يعد لديهم قائد يحاربون تحت رايته، فقبلوا بالانضمام تحت لواء أبرهة، وبقي أبرهة يتعالج من هذه الإصابة لفترة من الوقت.

وصلت الأخبار للنجاشي في الحبشة، بأن الحرب بين جنوده كادت تشتعل بسبب أبرهة، وأن قائده المفضل أرياط قد قُتل على يد أبرهة بغدر، فغضب غضبًا شديدًا وقال:

لقد اعتدى على الأمير الذي وليته على اليمن وقتله.

فقال أحد الوزراء:

ربما حدث بينهما ما لا نعرفه يا مولاي.

_مهما يكن لم يكن أبرهة ليقتل أميري أرياط!

فقال آخر:

يا مولاي إنّ أبرهة معروف بتدينه الشديد وحبّه لدينه.

فقال النجاشي:

مهما يكن، واللَّه لأبعثن لهُ جيشًا جرارًا، وأذهب فأطأ قدمي بلادي التي اغتصبها، وأوطئ رأسه بقدميّ هاتين.

كان أحد الموجودين من أصدقاء أبرهة، فأرسل لهُ يُخبره عن القسم الذي أقسمهُ النجاشي، وأنَّهُ يريد الذهاب للقضاء عليه.

وعلى الفور جمع أبرهة القادة والمساعدين المقربين له فقط، وقال لهم:

إنَّ النجاشي غاضب من قتل أرياط، وأقسم أن يأتي إلى هنا للقضاء علي.

فقال أحد المساعدين:

يا مولاي إنَّ هذا لأمر كبير شديد، فكيف لنا بالوقوف أمام النجاشي العظيم؟

فأكمل بسرعة القائد عتوده:

أجل، فإنّ معظم الجنود الأحباش لن يستطيعوا الحرب، أو حتّى الوقوف ضد النجاشي العظيم، ومن المؤكد انقلاب الكثير، إن لم يكن الجميع، خاصة وأنّ موت أرياط لا يزال يؤثر فيهم ولم يستتب الأمر لنا بعد.

ففكر أبرهة قليلًا، ثم قال:

هذا الكلام صحيح، ولكن ما الحل الآن؟

فقال مساعده الأوّل:

لا بُدّ للخروج من هذهِ المشكلة أن تسترضي النجاشي بأي طريقة، وتحاول منعه قبل المجيء بأي طريقة، فإنّهُ إن أتى إلى هنا لن ينقذك منه شيء.

فقال مستشاره الخاص:

ولكنّ النجاشي قد أقسم ولا بُدّ وأن يبر بقسمه مهما حدث، فهو لم يحنث بقسمٍ أقسمه في حياته من قبل.

ظل الجميع يحاول الوصول إلى حلٍّ ما، لهذه المشكلة الكبيرة التي حلت عليهم، وطال الوقت حتّى توصلوا إلى قرار نهائي وبدأوا في التنفيذ.

وصلت رسائل أبرهة إلى النجاشي وهو جالس على عرشه، فأمر النجاشي لها بالدخول، وقال لحاجبه:

ماذا يوجد في رسالة هذا المتمرد على ملكي؟

فقال الحاجب:

يا مولاي إنَّ الرسائل تحتوي على الكثير من الهدايا الذهبية، ومن منتجات اليمن النفيسة.

فقال النجاشي بسرعة:

هل يظن أنَّ هذهِ الهدايا سوف تبر بقسمي الذي أقسمته؟ ماذا أيضًا؟

فقال الحاجب:

في إحدى الرسائل يوجد شعر محلوق، وأخرى بها تراب ورسالة.

فقال النجاشي بدهشة:

شعر محلوق! وتراب! اقرأ الرسالة لنعلم ما هذهِ الأشياء الغريبة؟

فمن المؤكد أنَّ هناك سرًا، فلم يكن ليبعث بالهدايا الكثيرة إن كان يريد التحدي.

فقرأ الحاجب الرسالة والكل متلهف لمعرفة محتواها وقال:

أيُّها النجاشي العظيم بارك الرب ملكك، أمّا بعد، إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك، وكل ما في الاختلاف لطاعتك، إلا أنني كنت أقوى من أرياط في ضبط أمور اليمن، وأكثر حكمة في سياستها والسيطرة عليها، بعد أن كانت الأمور سوف تخرج من أيدي الأحباش في اليمن، فسيطرت عليها بسرعة، ولقد حلقت شعري وبعثت لك بتراب اليمن حين سمعت بقسمك؛ لتبر بقسمك الذي نحن فداء له، وتضعه تحت قدميك من عبدك أبرهة.

انتهت الرسالة، ابتسم النجاشي لهذهِ الرسالة، وقال:

ما رأيكم فيما سمعتم من رسالة أبرهة؟

فقال أحد الوزراء:

لقد قال قولًا حسنًا يا مولاي، وإن أبرهة من المعروفين بولائه الشديد للنجاشي العظيم.

وقال الكاهن:

لقد أخبرت مولاي من قبل أنَّ أبرهة من المتدينين المحبين للرب، والمنفذين لشرائعه، وقد أرسل لعظمتكم ما يبر بهِ قسمه العظيم.

قال كبير القادة:

يا أيها النجاشي العظيم، إنَّ أبرهة قائد معروف بالحكمة والدهاء وقوة الشكيمة، وهو من خير عبادك وجندك في اليمن.

فكّر النجاشي قليلًا ثم نظر إلى الحاجب:

اكتب أيها الحاجب: "من النجاشي إلى أبرهة، لقد رضينا عنك وملّكناك أمر اليمن، فاثبتْ فيها حتّى يأتيَك أمرنا."

وبالفعل استتبّ الأمر لأبرهة في اليمن، وأصبح هو الملك دون أن ينازعه أحدٌ على مُلكه.

مرّت عدة سنواتٍ لم ينازع أحدٌ أبرهة في ملكه على اليمن، وتقرّب بالهدايا والطاعة للنجاشي ملكِ الحبشة، فأصبح هو الحاكم الأول بأمر النجاشي.

في ذلك الوقت، بدأ أبرهة في بناء كنيسة عظيمة الارتفاع، واستمر بناؤها عدة سنواتٍ حتّى اكتمل البناء، فأصبحت أعظم الكنائس في ذلك الوقت وأطولها، حتّى إنَّ العرب أسموها (القليس) وذلك لعظم ارتفاعها، حتّى إنَّ مَن ينظر إليها ويرفع رأسه عاليًا، تسقط قبعته من فوق رأسه.

وزيّنها بالتحف والتماثيل والزخارف الرائعة، وقد أعجب بها أبرهة وببنائها، وعظّمها تعظيمًا شديدًا أكثر من تعظيمه لأي شيء، وبالتالي، أصبحت في نفسه كالآلهة، وأراد أن يتخذها الناس بدلًا من الأصنام عبادةً، حتّى إنَّهُ كتب إلى النجاشي في الحبشة رسالة قال فيها:

"إني قد بنيت لك أيها النجاشي العظيم كنيسة لم يُبنَ مثلها لملك من قبلك، ولن أنتهيَ عن دفع العرب للمجيء إليها، حتى يحجوا إليها بدلًا من البيت الذي يحجون إليهِ في مكة."

وصلت هذهِ الرسالة إلى النجاشي، وبدأ أبرهة في تزيين الكنيسة بأفضل ما يكون، وجعل فيها من كل شيء، وظل يدعو الناس ليحجوا إليها، ويرغّبهم في زيارتها، ولكن لم تنجح جميع محاولاته في جذب العرب إليها، وقد أصابه ذلك بالغضب وزاد من حقده على الكعبة المشرفة التي يحج إليها العرب.

فأرسل المنادين في جميع أرجاء مملكته، أن يُعلنوا أنَّ الحجَّ من هذا العام سوف يكون للقليس، ولن يحجَّ أحدٌ بعد الآن إلى الكعبة.

سمع العرب بذلك، فغضبت أرض العرب بمَن فيها. أبرهة الأشرم يريد صرف الناس عن حج الكعبة المشرفة، التي بناها نبيّ الله إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، والتي دأب الناس على الذهاب إليها والحج طوال قرونٍ كثيرة، وأنّ أبرهة قد ضاهى بناءه ببناء الأنبياء، فاجتمع العرب في قريش، وقرروا القيام بعمل يبين لأبرهة أنهم لن يحجوا للقليس مهما عمل فيها.

فذهب أحدهم وهو يُدعى (الكناني)، ومعه بعض من رجال قريش والعرب، وأشعلوا فيها النيران فاحترقت عن آخرها، فغضب أبرهة غضبًا لم يغضبْ مثله من قبل، وجمع الوزراء وقال لهم:

مَن الذي أحرق القليس وهدمها؟

فقال أحد وزرائه:

إنهم بعض الشباب من العرب جاءوا ليلًا فأضرموا فيها النيران، ولم نستطع السيطرة على النيران.

فقال أبرهة:

ولماذا فعلوا هذهِ الفعلة الشنيعة؟

فأجابهُ أحد الرهبان:

لقد سمعوك تأمر الناس بالحج إليها، وتركَ حجَّ بيتهم في أرض الجزيرة، فلهذا أشعلوا فيها النيران.

فقال أبرهة:

إذًا، لأذهبنَّ إلى بيتهم هذا الذي يحجّون إليه، ثم أهدمه حجرًا حجرًا، ولا أبقي فيه شيئًا، ولأمحونَ هذه القرية من على وجه الأرض، فلا يعرف أحدٌ أين كانت.

فقال القائد الأعلى:

إننا يا مولاي، سنذهب إلى أرضهم وهم متفرقون وقبائلُ صغيرةٌ، فمن السهل القضاء عليهم.

فقال أبرهة:

ولو كانوا جيوشًا جرارةً سأقاتلهم حتّى أهدمَ لهم بيتهم ذاك، فاكتبْ أيها الحاجب للنجاشي، وأخبرهُ بما فعل هؤلاء العرب، وبما أنا عازمٌ على فعلهِ لهدم بيتهم.

كتب الحاجب الرسالة إلى النجاشي، فأرسل النجاشي إلى أبرهة يوافقه على ما أراد، بل وأرسل مع رسائله فيلًا عظيمًا من الحبشة ليهدمَ به أبرهة البيتَ مرّةً واحدةً.

وجيّش أبرهة جيشًا عظيمًا في العدد والعدّة، وجعل الفيل في المقدمة؛ ليخيفَ بهِ العربَ كلهم الذين لم يشاهدوه من قبل.

انطلق جيش أبرهة في طريقهِ إلى البيت الحرام يريدُ هدمَه، فثار أهل الجزيرة العربية.

فقام أحد العرب، ويُدعى (ذي نفر)، وكان من أشراف أرض اليمن وقوادهم، وجمع من أهله ومن أرض العرب الكثيرينَ لحرب أبرهة الحبشي والدفاع عن بيت الله الحرام.

وبالفعل، تقابلَ الجيشان، ولكنّ جيش أبرهة كان الأقوى فهزم ذا نفرٍ وأتباعه، وأسر ذا نفرٍ واحتفظ به أسيرًا لعله ينتفع به بعد ذلك، وأكمل أبرهة تقدمه نحو البيت الحرام حتّى وصلَ إلى أرض قبيلة تُدعى (خثعم)، فتعرض له رئيسُ القبيلةِ (نفيل بن حبيب) بمَن جمعهم من العرب وقاتله، ولكنّ أبرهة هزمه هو الآخر وأسره أيضًا، وأكمل الطريق نحو الكعبة، وفي الطريق أيضًا قابلهُ أهلُ ثقيفٍ ورئيسُهم (مسعود بن معتب)، فهزمه أبرهةُ أيضًا.

بعد هذهِ الهزائم المتتالية للعرب لم يبقَ مَن يستطيع الدفاع، أو المقاومة ضد الجيش الجرار لأبرهة الأشرم.. وعند وصول أبرهة إلى أهل الطائف، خاف أهلها على أنفسهم وعلى بيتهم الذي يدعى (اللات)، الذي كانوا يقدسونهُ ويعبدونهُ فأرسلوا إلى أبرهة رسولهم فدخل الرسول إلى أبرهة، وقال له:

أيها الملك العظيم إننا أهل الطائف، نريد أن تؤمننا على ديارنا وأموالنا وأهلنا.

فقال له أبرهة:

إنني أُريد هدم ذلك البيت الذي تحجون إليهِ وتعبدونه.

فقال الرسول لأبرهة:

أيها الملك العظيم، إن بيتنا هذا ليس البيت الذي تريد هدمه، إن بيتنا يسمى (اللات) والبيت الذي تريد هدمه، هو الكعبة في مكة وهي بعيدة عنا. وهذا البيت الذي نعبده لا يقصده أحد من العرب سوى أهلنا فقط، أمّا الآخر فالكل يذهب إليه.

وكانت العرب في ذلك الوقت، يبنون بيوتًا تُشبه الكعبة المشرفة في معظم القبائل تعظيماً وتشريفًا.

فقال لهُ أبرهة:

كيف أعلم أنك صادق فيما تقول؟

قال الرجل:

نرسل معك أيها الملك العظيم دليلًا، يدلك على الطريق إلى البيت الذي تريده، وتتركنا في سلام.

فكر أبرهة قليلًا، فقد كان بالفعل لا يعلم الطريق إلى ذلك البيت، ولم يقبل أحد أن يدلّه على مكانه.

فقال له أبرهة:

إذا ابعثوا معي الدليل وأترككم، وأجزل لكم العطاء، ولا يتعرض لكم أحد من رجالي، فإني لم آتِ سوى لهدم هذا البيت.

فخرج من عنده رسول الطائف وهو سعيد بنجاح مهمته، وأخبر قومه بذلك فأسرعوا بإرسال الدليل، ويُدعى (أبو رغال)، إلى أبرهة كي يتركهم وشأنهم. وبدأ أبرهة في التحرك دون أن يتعرض له أحد، بل على العكس أصبح الجميع يهابونه ويخافون منه، ومن ذلك الفيل الذي لم يروا مثله من قبل.

انقضى الوقت سريعًا، ووصل أبرهة بجيشهِ إلى قرب مكة عند (المغمّس)، وعند هذا الحد مات (أبو رغال) الدليل الذي ذهب مع أبرهة، وأصبح قبره هناك (أصبح العرب يرجمون قبر أبي رغال؛ جزاءً لوشايتهِ عن مكان البيت الحرام تطوعًا).

وصل أبرهة لقرب مكة فخرج قائده (الأسود بن مقصود الحبشي)، فاعتَدى على إبل أهل مكة، وأخذ الإبل التي كانت ترعى، وأموال أهل قريش الموجودة في هذهِ المنطقة، وكان في هذهِ الإبل مائتي ناقة لعبد المطلب جدّ رسول الله_صَلَّى اللهُ عليهِ وسلّم، وهو سيد قريش.

اجتمع سائر أهل قريش في بيت الندوة جانب الكعبة، وتشاوروا لقتال أبرهة، ولكنهم في النهاية اتفقوا على عدم التعرض له؛ فهو أكثر قوة ورجال وعتاد، ومعه ذلك الفيل الذي يرهب الخيل

والرّجال، ولن يستطيعوا مواجهته بأي شكلٍ من الأشكال، لكنَّ أهل تهامة أرسلوا إلى أبرهة أحد رجالهم فقال له:

أيها الملك العظيم، إنَّ أهل تهامة يملكون من الأموال الكثير وهي أرض غنية.

فقال له أبرهة الحبشي:

ومالي أنا وغناء أهل تهامة؟

فقال الرجل:

إنَّ أهل تهامة يعرضون على الملك العظيم، ويرجون موافقته على أن يأخذ ثلث الثمار والمال الذي نملكه، ويترك الكعبة في حالها، ويطمعون أن يقبل الملك العظيم بذلك.

فضحك أبرهة قائلًا:

وهل أنا بحاجةٍ إلى أموالكم؟

واللَّه ما جئت إلا لهدم هذا البيت، ولن يمنعني عنهُ شيء، ولست بالذي يأخذ أموالكم، فعُد إلى أهلك وقل لهم إنَّ أبرهة ملك اليمن عازم على هدم البيت. وصل الرجل بالرسالة، وعلم أهل العرب بأنهم ليسوا بقادرين على مقاومة أبرهة، لذا تركوا الأمر للَّه.

أمّا أبرهة فعندما استعد للهجوم بعد استقراره قُرب البيت الحرام، أرسل مَن يأتيهِ بأحد رجاله، وهو (حناطة الحميري)، وقال له:

اذهب يا حناطة إلى أهل قريش فاسأل عن كبير القوم، وقل له إنَّ أبرهة ملك اليمن لا يريد سفك دمائكم وقتلكم، ولا يريد سوى هدم

هذهِ الكعبة. فإن أصروا على الحرب، فقل له إنَّ الموت سيأتيهم من حيث لا يعلمون وسنبدأ في الهجوم، أمّا إن قبلوا السلام وتركوا البيت لي لأهدمه، فتعال إليّ وأحضرهُ معك.

فقال حناطة:

السمع والطاعة لمولاي.

وأسرع حناطة إلى قريش وسأل عن زعيمهم وكبيرهم، فدلّهُ الناس على عبد المطلب، فذهب إليهِ حناطة، وقال له:

إنني رسول الملك أبرهة إليك يا زعيم قريش.

فقال لهُ عبد المطلب:

مرحبًا برسول أبرهة الملك.

فقال لهُ حناطة:

إنَّ الملك أبرهة يقول لكم إنَّهُ لم يأتِ لقتالكم، بل جاء ليهدم هذا البيت، فإمّا أنْ تختاروا القتال فيقتل منكم جيش الملك الكثير ويأسر الباقون، أو تتركوا البيت لهُ يهدمه ويترككم لشأنكم.

فأجابهُ عبد المطلب بحزم:

واللَّه ما نريد حربه، وما لنا من طاقة أو قوة لقتاله، أمَّا البيت فهو بيت اللَّه الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإنْ يشأ يمنعه منكم فهو بيته وحرمه، وإنْ يخل لأبرهة السبيل فليس لنا طاقة بحربه.

فعلم حناطة أنَّ عبد المطلب لن يقاتل هو وأهل مكة عن البيت الحرام، فقال له:

إذًا تعال معي إلى الملك كما أمر ليتحدث معك.

فذهب معهُ عبد المطلب على الفور، وقبل دخول عبد المطلب دخل على الملك أحد رجاله فقال له:

يا أيها الملك العظيم إنَّ عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير قريش، وهو يطعم الناس بالسهل ويطعم الوحوش في البراري، فأذن له يتكلم معك.

فقال أبرهة:

فليدخل أبو طالب فإنا قد أذنا له بالدخول.

فدخل عبد المطلب على أبرهة فنظر إليه وأجله وأعظمه، فلم يكن أحد يرى عبد المطلب إلَّا ويعجب به ويحترمه، فقد كان حسن الهيئة والوجه ويبعث على الاحترام، فأمر أبرهة مَن حوله أن يجعلوا عبد المطلب ليجلس جواره وقال له:

قل لي ما حاجتك أيها الشيخ الجليل؟

فقال عبد المطلب للمترجم:

قل للملك العظيم أنَّ قائده الأسود قد سلب مني مائتين من الإبل، كانت ترعى في الوادي، وإذا يتكرم الملك فيرد لي الإبل.

ترجم المترجم الكلمات فتغير وجه أبرهة، وقال لعبد المطلب:

لقد كنت قد أجللتك عندما رأيتك والآن سقطت من نظري، إنني أتيت لكي أهدم البيت المقدس لديكم، وهو دينك ودين آبائك وتكلمني في مائتين من الإبل!

فقال عبد المطلب بكل ثقة وحزم:

إنَّ هذهِ الإبل ملكي وأنا ربها (صاحبها)، أمَّا البيت فلهُ ربٌّ يحميه، ونحن لا طاقة لنا بك وسيمنعك رب البيت منه إن شاء.

فضحك أبرهة وقال:

أعيدوا لعبد المطلب إبله كلّها، وأخبروا أهل مكة أن يخرجوا من ديارهم حتّى لا يصيبهم منا سوء.

وأخذ عبد المطلب الإبل وعاد إلى قريش مسرعًا، وقال بأعلى صوته:

يا أهل مكة، أخرجوا من دياركم واتركوا أرضكم واصعدوا إلى الجبال.

فأسرع أهل مكة كلهم الصغير والكبير بصعود الجبال حول مكة، وبقي عبد المطلب وبعض من أشراف مكة، وذهبوا جميعًا نحو البيت الحرام، وظلوا يدعون اللَّه أن يحفظ البيت، وأمسك عبد المطلب بحلقة البيت وأخذ يدعو اللَّه ألَّا يستطيع هؤلاء الأحباش دخول البيت وهدمه، وأن ينصر اللَّه عز وجل بيته.

وبعد قليل ذهب عبد المطلب ومَن معه ليصعدوا الجبل، ويروا ما سوف يحدث.

بدأ جيش أبرهة في الاستعداد للهجوم على الكعبة المشرفة، وأمر أبرهة الفيل بأن يتوجه نحو البيت الحرام.

ففي لحظة ذهب (نفيل بن حبيب) إلى الفيل، وقال لهُ في أذنه: ابرك محمودًا أو ارجع من حيثُ أتيت راشدًا؛ فإنَّكَ في بيت اللَّه الحرام.

وسمع الفيل تلك الكلمات فبرك على الفور على الأرض! وجرى نفيل هربًا من جيش أبرهة، وصعد الجبل مع بقيّةٍ أهل مكة.

نظر أبرهة فوجد الفيل قد برك ولم يتحرك فتعجب من ذلك الأمر، ثُمَّ أمر أنْ يضربوهُ حتّى يقوم فما قام الفيل، فضربوه بالسياط فلم يقم، ثُمَّ حرقوهُ بالنار فلم يقم، وظلوا يضربون الفيل ويعذبونه لكي يقوم... فظل كما هو لا يتحرك.

وأهل مكة فوق الجبل ينظرون، وقد زاد إيمانهم بأنَّ اللَّه سيحمي بيته ولكن كيف؟ لا يعلمون. وجنود أبرهة يكادون يموتون غيظًا، وأبرهة غضب غضبًا شديدًا.

بدأ الجند يوجّهون الفيل نحو الطريق العائد إلى اليمن، فقام مهرولًا يجري، فوجهوه نحو الشام فمشى بسرعة، فوجهوه في جميع الاتجاهات فقام يمشي يريد الهرب، وعندما كانوا يوجهونه نحو الكعبة يبرك ولا يتحرك من مكانه! ويضربونه ويحرقونه فلا يتحرك من مكانه.

ووصل الغضب بأبرهة وجنوده مبلغه، فماذا يفعلون في هذهِ المشكلة، وأبرهة مصمم على هدم البيت؟

في هذهِ اللحظة لم يمهل اللَّه أبرهة الأشرم وجنوده، ونظروا فإذا من بعيد من السماء طيور غريبة الشكل أمثال الخطاطيف، سوداء اللون في مجموعات تكاد تحجب أشّعة الشَّمس، تحمل كل منها ثلاث أحجار، وصفها اللَّهُ _سُبحانَهُ وتعالى، بأنها قوية شديدة، الواحدة منها بحجم العدس أو الحمص، اثنان في قدميها وواحدة في منقارها، وتأتي مسرعة نحو الجيش، وهم لا يدرون ما سوف يحدث أو حتّى من أينَ أتت؟!

وفجأة انقضت الطيور على جيش أبرهة، ولم تترك فيه أحدًا إلَّا وألقت عليهِ الحجارة، إلَّا عددًا قليلًا من أفراد الجيش.

أمَّا مَن أصابته الأحجار إصابات مباشرة فمات على الفور، فقد كان الحجر منها يصيب الرجل منهم فتخترقه، وتخرج من الناحية الأخرى من جسده فيموت على الفور، ويصبح مثل أوراق الشجر المتساقط المتقطع، بعد أن دمرت تلك الأحجار أجسادهم تمامًا.

أمَّا أبرهة وبعض من جنوده فلم يموتوا من تلك الأحجار، وأسرعوا هاربين منها بعد أن هلك أكثر الجيش بقدرة اللَّه سُبحانَهُ وتعالى، وأصبحوا يبحثون على أيٍّ من العرب الذين كانوا معهم مثل نفيل، ولكنهم لم يجدوا أحدًا منهم، فجروا في جميع الاتجاهات لا يعلمون أينَ يذهبون؟

مات معظمهم في الصحراء، أمَّا أبرهة فأصابه مرض تساقط الأعضاء، فأصبحت أجزاء جسده تتساقط قطعة قطعة، وأصابعه تتساقط أنملة أنملة، ويتساقط منهُ الدّم والقيح كلما سقط منهُ عضو، حتّى وصلوا بهِ إلى اليمن وقد أصبح مثل الطير الصغير يفتقد معظم أعضائه! وبقي قليل من الوقت ثُمَّ مات بأمر اللَّه، بعد أنْ ظهر قلبه من وسط صدره.

أمَّا أهل قريش فقد رأوا ما حدث لأصحاب الفيل، بعد أن قضى اللَّه عليهم، عندها أنشد النفيل قائلًا عند رؤيته لما حدث لهذا الجيش:

أينَ المفر والإله الطالب؟

والأشرم المغلوب وليسَ الغالب.

مُنذُ ذلكَ الوقت آمن العرب بأنَّ هذا البيت لهُ حرمته، وأنَّ اللَّه أراد أن يظهر للناس أجمعين، أنَّهُ سيحمي بيته بما لا يخطر على بال بشر، لأنَّهُ في ذلك الوقت لم يكن الإسلام قد نزل على الأرض.

أمَّا الآن فإنَّ الحرم الشريف هو أمانة في أعناقنا، إلى أنْ يشاء اللَّه _عزَّ وجلّ، فيحميه مرّة أُخرى في آخر الزمان، كما أخبرنا رسول اللَّه محمد _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وفي هذهِ حكاية أُخرى إنْ شاء اللَّه.

خاتمة

كنت طوال عمري لا أعلم علاقة قصة أصحاب الأخدود بأبرهة الحبشي، وأتساءل كيف أتى أبرهة الحبشي إلى أرض اليمن؟!

وكيف استتب له الأمر هناك؟

كيف أتى الفيل إلى أرض العرب، ولم يكن له مثيل في هذهِ الأرض من قبل؟

تساؤلات كثيرة دارت في رأسي حتّى منَّ الله عليَّ بقراءة البداية والنهاية، لأنني وجدت فيه الإجابة عن أسئلتي.

وقد ذكر اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، القصة في القرآن الكريم، تحديدًا في سورة (الفيل).

بِسْمِ اللَّهِ الرحمٰن الرحيم

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)}.

صدقَ اللَّهُ العظيم

غزوة مؤتة

في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، قرر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، أن يبعث جيشًا من المسلمين إلى أطراف الشام، لقتال القبائل التي رفضت الدخول في الإسلام، أو ترك المسلمين يدعون إلى اللَّه في بلادهم، أو دفع الجزية، فلذا وجب قتالهم لصدهم عن سبيل اللَّه.

ودعا رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، المسلمين للاستعداد للحرب.

وبالفعل، بدأ المسلمون في الاستعداد عن طريق التبرع بالمال، أو الجهاد بأنفسهم في سبيل اللَّه. فتجمع من المسلمين ثلاثة آلاف مجاهد، يريدون الشهادة في سبيل اللَّه، فاجتمع بهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقال للمجاهدين:

زيد بن حارثة أمير الناس، فإن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب جعفر فعبد اللَّه بن رواحة، فإن أُصيب عبد اللَّه بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلًا فليجعلوه عليهم.

وبالفعل، استعد زيد لتولي مهمة قيادة المسلمين في تلك الغزوة، فقال لهُ أحد الجالسين ويدعى النعمان:

يا أبا القاسم، إن كنت نبيًا حقًا، فإنْ سميت أسماء القادة وأخبرت عن إصابتهم، فسيُصابون أو يُقتلون جميعًا.

إنَّ الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا قوادهم، قُتلوا أو أُصيبوا.

فقال النعمان لزيد رضي اللَّهُ عنه:

فلتعلم يا زيد، إن كان محمد نبيًا حقًا، فإنَّكَ لن ترجع أبدًا.

فقال زيد:

أشهد أنَّ محمدًا رسول اللَّه صادق ونبي اللَّه حقًا.

وقام عبد اللَّه بن رواحة بالبكاء، فقال لهُ الناس:

لماذا تبكي يا عبد اللَّه؟

فقال عبد اللَّه:

أمَّا واللَّه إني لا أخاف الموت، ولكني تذكرت عذاب النار فخفت منها، فلست أدري كيف النجاة منها؟

فقال له الناس:

صحبكم اللَّه، ودفع عنكم عذاب النار، وأعادكم إلينا سالمين.

وسار الجيش بأكمله، والقواد الثلاثة يعلمون أنهم يسيرون إلى حتفهم، ورغم ذلك لم يتراجعوا عن أمر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولم يتأخروا. واقترب ذلك الجيش الصغير حتّى إذا اقتربوا من موقع المعركة، وصلتهم أخبار الجيش المقابل، فعلموا أنَّ هرقل قد جمع لهم جيشًا مقداره مئة ألف جندي، وجمعت القبائل الموجودة في شمال الجزيرة العربية، مئة ألف مقاتل آخرين، فأصبح قوام جيش الكافرين مئتي ألف مقاتل، والمسلمون ثلاثة آلاف فقط، فماذا سيفعل ثلاثة آلاف أمام مئتي ألف؟

ولكن لِنَعلَم أنَّ اللَّه لم ينصر الإسلام بالكثرة العددية أو بالمعدات الكثيرة، بل نصرهم بالإيمان، والتضحية بالنفس في سبيل ارتفاع كلمة الحق. ولكن ماذا فعل المسلمون عندما علموا بقوة عدوهم وكثرته؟

تجمع المسلمون وجلسوا في قرية (معان) ليلتين، يتشاورون في أمرهم كما علّمهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، التشاور فيما بينهم، فقال بعض منهم:

إنَّ الكافرين كثيرون جدًّا، ماذا سنفعل؟

قال آخرون:

فلنرسل رسالة إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ونسأله عما نحنُ فاعلون.

فرد آخرون:

فلنرسل إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فإنْ شاء أكملنا الطريق وإنْ شاء عدنا إلى المدينة.

فقام عبد اللَّه بن رواحة رضي اللَّهُ عنه:

واللَّه يا قوم إنَّ الشهادة التي خرجتم من أجلها، هي التي تكرهونها، ونحنُ معشر المسلمين لا نقاتل بعدد أو بعدة، وما نقاتل أعداءنا إلَّا بهذا الدين الذي أكرمنا بهِ اللَّه، وما وعدنا اللَّه إلَّا إحدى الحسنيين.. إمَّا النصر وإمَّا الشهادة.

فقال المسلمون كلهم:

صدقت واللَّه يا بن رواحة.

ثُمَّ قام الجيش واتجه في سبيله نحو أرض المعركة، فاستعدوا في قرية تُدعى (مشارف).

ولكن عندما اقترب جيش المشركين منهم، وجد المسلمون أنَّ موقعهم هذا ليسَ بالموقع المثالي، ففي هذهِ المنطقة سيلتف حولهم المشركون ويطبقون عليهم... فقرر المسلمون اللجوء إلى قرية أُخرى تُدعى (مؤتة)، التي سُميت الغزوة باسمها، ولكن ما السبب في ذلك الاختيار؟

لقد كانت تلك القرية ضيقة في طبيعتها، تُحيطها جبال، ولها مدخل واحد مواجه لجيش العدو، ضيق بعض الشيء، فكان العدو لا يستطيع أنْ يلتف حولهم، أو حتّى مهاجمتهم بأكثر مما يستطيعون صده.

ولكن كل ما حدث شيء، ورؤية هذا العدد الضخم المهول أمام المجاهدين شيءٌ آخر.

نظر أبو هريرة رضي اللَّهُ عنه، فقد رأى ما لا قِبَل لأحد بهِ من العدد والعتاد... إلخ، فبرقت عيناه، فنظر إليهِ ثابت بن الأرقم وقال:

_يا أبا هريرة كأنَّكَ ترى جموعًا كثيرة.

فقال أبو هريرة رضي اللَّهُ عنه:

_نعم.

فقال ثابت رضي اللَّهُ عنه:

إنَّكَ لم تشهد بدرًا معنا، إنَّا لم نُنصر بالكثرة بل بإرادة اللَّه.

وتراص الجيشَان أمام بعضهما، وبدأت المناوشات الخفيفة، ونظر جنود العدو إلى المسلمين فوجدوا ذلك العدد القليل، فبدأوا يغترون بقوتهم، ثُمَّ بدأ هجوم أعداء اللَّه وهم يتهامسون فيما بينهم بغرور وفخر قائلين:

ماذا يستطيع مَن لا يزيدون عن ثلاثة آلاف في قتال ما يزيد على مئتي ألف؟

إنهم غير مدربين مثلنا، ولا يملكون سلاحنا أو عتادنا، أو ذهبنا أو حتّى مهارة قُوّادنا، ما هم إلا رُعاة من البدو جاءوا من الصحراء يريدون طعامًا وملابس.

وليس ببعيد يصول أبو هريرة ويجول، أكثر رواة الحديث النبوي الشريف، أراد أن يسطر بسيفه في دماء أعداء اللَّه أكثر مما سطر بلسانه، منهاج رسول اللَّه، فإن كنت بفمي قد رويت آلاف الأحاديث، فيا سيفي، أقتل من الأعداء أكثر من ذلك بكثير، وكان هذا هو الحال، منافسة بين السيف والقلم، والفائز هو أبو هريرة رضي اللَّهُ عنه وأرضاه.

وإذا نظرت إلى الأمام قليلًا لوجدت ثابت بن الأرقم يكر على أعداء اللَّه، ويوقع فيهم مقتلة عظيمة. ويلٌ لمَن يقترب ممن شهد بدرًا مع رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فإنَّهُ لا يَهاب في اللَّهِ أحدًا. فكل مَن يقترب سيعود لأهله جريحًا أو لا يعود على الإطلاق.

وتشاهد في كل مكان صحابة رسول اللَّه، عبد اللَّه بن عمر، عوف بن مالك وغيرهم الكثير، تتصاعد من أفواههم صيحات التكبير، ويقتل تحت أيديهم الآلاف من حزب الشيطان، وأضعاف ذلك من الجرحى.

ولكن أين قائد الجيش؟

أين مولى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم؟

إنَّهُ هناك في أرض المعركة يتقدم الصفوف يحمل الراية السوداء، راية رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، (العُقاب)، وفي يدهِ الأخرى سيف يقاتل ويقول:

اللَّهُ أكبر، صدق رسول اللَّه.

ولكن ما لبث رضي اللَّهُ عنه أنْ أصابته ضربات قاتلة، فاستشهد وذهب للقاء ربه عزّ وجلّ، واهتزت الراية في يده، ولكنّها لم تسقط على الأرض، فقد تلّقاها جعفر بن أبي طالب بيده، ثُمَّ قفز من فوق الفرس ولم يلبث أنْ ذبحَ الفرس؛ كي لا ينتفع بهِ العدو، ولكي لا يتراجع رضي اللَّهُ عنه، لأنَّهُ علم أنَّ في هذا الموقف سوف ينال

الشهادة والموت في سبيل اللَّه، وقال بأعلى صوته تلك الأبيات الخالدة:

يا حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها

ودخل وسط عدوه بشجاعة لا مثيل لها، فتكالب عليهِ الأعداء من كل حدب وصوب، وهو يوقع فيهم مقتلةً عظيمة.

وفي خضم هذا القتال العظيم أصابته الجروح في كل مكان في جسده، وانبثقت منه الجروح وسالت دماؤه الشريفة، ولكنّهُ لم يتراجع أو تخور قواه، يضرب عن يمينه كما يضرب عن شماله، وانطلق سيف غادر كافر تحين الفرصة فقطع يده الشريفة رضي اللَّهُ عنه، فلم يبالِ وحمل راية نبيه وحبيبه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بيده الأخرى، ولكنّ سيف الغدر لم يمهله الكثير فبتر لهُ يده الأخرى، ويا للعجب! فإنَّهُ لم يتراجع أو حتّى يقف في مكانه، فلم يقبل رضي اللَّهُ عنه أن يترك الراية تسقط على الأرض، فأمسك بها بين عضديه (أي بباقي يديه اللتين قطِعتا)، وفي هذهِ اللحظة أرادهُ

اللَّهُ عز وجل أن ينضم لمواكب الشهداء، فجاءه القتل من سيف قاتل فاستشهد رضي اللَّهُ عنهُ في الحال.

ومن بعيد كان هناك مَن يُراقب ذلك الموقف، ويُتابع ببصرهِ جعفر بن أبي طالب، كانت تلك عينا عبد اللَّه بن رواحة رضي اللَّهُ عنه القائد الثالث.

وعندما أيقن رضي اللَّهُ عنه أنَّهُ سيصبح القائد، وكان عبد اللَّه صائمًا وشعر بالإجهاد العظيم، فأراد أن يتقوى ويفطر فأعطاه أحد أقربائه بعض التمرات فأخذها، وعندما قربها من فمه لم يستطع أن يأكلها، فلم تسمح له نفسه بأن يفطر، بل سيُستشهد صائمًا بإذن اللَّه.

وعندما رأى جعفر يُقتل لامَ نفسه وشجعها على الإقدام قائلًا:

أقسمتُ يا نفس لتنزلنه
طائعةً أو لا لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة
مالي أراك تكرهين الجنّة
قد طال ما قد كنت مطمئنة
هل أنت إلَّا نطفة في شنّه؟

ثُمَّ قال:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هديتي

ثُمَّ قال:

واللَّه إنَّهُ لوقت كثير آكل فيه التمرات، إنَّ الجنّة تنتظرني.

كان رضي اللَّهُ عنهُ يفخر بما فعله صاحباه، زيد وجعفر رضي اللَّهُ عنهم أجمعين، وحمل الراية. وبالفعل لم يكن أقل منهما بلاءً وقوة حتّى لحق بهما شهيدًا، ولا تزال راية رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، مرفوعة فالتقطها ثابت بن الأرقم، وقال بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين اصطلحوا واختاروا رجلًا منكم ليحمل الراية.

فقال المسلمون ممن حوله:

أنت.. أنت يا ثابت.

فقال ثابت:

لستُ لها، ما أنا بفاعل.

وحمل الراية رضي اللَّهُ عنه، وأسرع إلى خالد بن الوليد، وقال:

خذها أنت يا أبا سليمان، وكن أنت القائد.

فقال خالد:

إنني لا أستحقها فأنت أفضل مني يا ثابت، فأنت قد حضرت بدرًا مع رسول اللَّه، وكنت أنا مع الكافرين.

فقال ثابت:

بل أنت لها يا خالد، يا أبا سليمان أنت أقدرنا في فنون الحرب.

كان ذلك منتهى التفاني، كل من المسلمين يرى أنَّ الآخر أفضل منه وأحق بالقيادة، في ذلك الوقت مَن كان يُريد الدُّنيا لتولى القيادة ليصبح هو القائد، ولكنهم أرادوا الآخرة وثواب اللَّه، فاختاروا الأصلح وليسَ الأفضل، فجميعهم الأفضل.

ولم يكونوا يعلمون أنَّ هذهِ اللحظة أعلنت مولد أحد أعظم القادة في تاريخ البشرية، اسم يبعث الرعب في القلوب، وفي ذات اللحظة يبث فيها الإعجاب.. إنَّهُ خالد بن الوليد (سيفُ اللَّهِ المسلول).

في تلك اللحظات في المدينة المنورة، على بُعد آلاف الأميال من أرض المعركة، كان رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يجلس وسط أصحابه في المسجد النبوي الشريف.

فقامَ وأمر المؤذن فقامَ وأذن في الناس قائلًا:

الصلاةُ جامعة.. الصلاةُ جامعة.. الصلاةُ جامعة.

فأسرع الناس من جميع أنحاء المدينة صوب المسجد، بعدما سمعوا نداء التجمع للمسلمين، فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

_أُخبركم عن جيشكم هذا؟

وقد كشف اللَّهُ _سُبحانَهُ وتعالى، لرسولهِ الحجب، ودون أي وسائل نقل حديثة، رأى الرسول الكريم المعركة أمام عينيه، وفوق المنبر بدأت تُنسَج إحدى معجزاته العظمى فأكمل قائلًا:

إنهم قد انطلقوا فلقوا عدوهم، أخذ الراية زيد فأصيب، أخذ الراية جعفر فأصيب، أخذ الراية ابن رواحة فأصيب.

وكان كلما ذكر إصابة أحد منهم استغفر لهُ ودعا اللَّه، وبشرهم بالجنّة حتّى إنَّ عينيه تذرفان الدمع؛ لفراق الأصحاب حتّى قال:

أخذ الراية سيف من سيوف اللَّه، سلّهُ على أعدائه يفتح اللَّه عليه.

وكانت هذهِ أول مرّة يلقب فيها خالد بن الوليد بذلك اللقب، الخاص بهِ إلى يوم القيامة على لسان حبيب اللَّه (سيف اللّه المسلول).

وما استطاع أحد أن يهزمه، وما طاله الموت على يد أحد المخلوقات، فسيف اللَّه لا يغمده غير اللَّه، فيُسلطهُ متى شاء ويغمده متى شاء.

ثُمَّ أكمل رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، قولًا عن شهداء المسلمين:

وما يسرهم أنهم عندنا.

ذلك أنَّ شهداء المسلمين في جنات عالية وفي الفردوس الأعلى، فقد أخبر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عن جعفر _رضي اللَّهُ عنه، بأنَّ اللَّه أبدله جناحين يطير بهما في الجنّة حيثما شاء؛ عوضًا عن يديهِ اللتين فقدهما في سبيل اللَّه.

ونعود إلى أرض المعركة حيثُ اشتد القتال بين الفريقين، ويستمر القتال والقتلى يتزايدون بالآلاف، والجرحى يصرخون بعشرات الآلاف، وجيش العدو يتمنى غياب الشَّمس ونزول الليل كي يحجز بينهم فيكفّ القتال، ولكن يومهم طويل، طويل من كثرة ما لاقوه، وكأنَّ الليل لا يأتي. والمسلمون يتوقفون ويُجرحون والعدو لا ينتهي، والإجهاد ينال منهم حتّى انتهى هذا اليوم.

جمع خالد _رضي اللَّهُ عنه، كبار المسلمين، وقال لهم:

ماذا ترون في هذهِ المعركة؟

فقال أحد المسلمين:

ماذا ترى أنت يا أبا سليمان؟

فقال خالد رضي اللَّهُ عنه:

إنني أرى أنَّ هذهِ المعركة لا نصر فيها.

فقال أحد الصحابة:

كيف هذا يا أبا سليمان؟

فرد خالد رضي اللَّهُ عنه:

إننا قتلنا منهم الآلاف بفضل اللَّه عزّ وجل، ولكن بقيَ منهم عشرات الآلاف، ثُمَّ إنَّ جنودنا قد أُرهقوا من كثرة القتال في عدّة أيام، وبعيدًا عن الإمدادات.

فقال أحد الصحابة:

يا خالد إنَّ رسول اللَّه قد أمرنا بالقتال.

فرد خالد رضي اللَّهُ عنه قائلًا:

إنَّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، أمرنا بمحاربتهم، وقد فعلنا وأريناهم البأس في المعركة، وقتلنا منهم الكثيرين، والحمدُ للَّه.

فقال المسلمون:

فماذا ترى يا خالد فأنت الأمير؟

فقال خالد رضي اللَّهُ عنه:

أرى أن نعود إلى المدينة فائزين بما رزقنا اللَّهُ به.

فقال جمع من الصحابة:

إذًا نعود، لنعود ليلًا إن شاء اللَّه.

فقال خالد:

لا نستطيع ترك أرض المعركة، وإلا تبعنا الروم وفقدنا موقعنا المميز، والتفوا حولنا في الصحراء، وهذا ما يجب ألا نفعله.

فقال أحد الصحابة:

فماذا ترى يا خالد؟

فبدأ خالد في سرد خطته الجهنمية التي تنم عن عظمة القائد، تلك الخطة التي لا تزال تدرس حتّى الآن، في أكبر الكليات العسكرية في العالم، بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام لا تزال تدرس، وهي خطة بسيطة ولكنها عبقرية، فقد قال خالد:

على كل رجال الجيش أن ينظفوا ملابسهم، وأن يشعروا العدو بأنهم جيش جديد، وتنظيف الأسلحة من الدماء والأتربة، ثُمَّ يحدث تغيير شامل في المواقع: الميمنة تصبح ميسرة، والميسرة تصبح ميمنة، والقلب يتراجع إلى المؤخرة، والمؤخرة تتقدم إلى القلب، المهم أن نشعرهم بأنَّ جيشًا جديدًا يقف أمامهم، وإمعانًا في التمويه سيغير كل قائد رايته، يغير ألوانها وكلماتها، فليكن كل شيء جديدًا، المهم أن يتم كل ذلك بهدوء دون أن يشعر أحد من العدو بما يحدث، وإلا شكوا في أمرنا.

فقال كبار الصحابة:

خطة جيدة ولكن ماذا سنستفيد من تلك الخطة؟

فأجاب خالد بسرعة:

إننا بذلك سوف نجعلهم يشعرون بالإحباط، جيش جديد وممد قد أتى إلينا، يعني قتالًا شديدًا، وأعتقد أنهم يرتعبون خوفًا من جيش المسلمين، وزيادة في الخداع ولزيادة خوفهم، سينفصل عن

الجيش عدد من الفرسان خلف الجيش بعيدًا عن أعين الروم، فينقسمون لعدّة فرق، وعند الإشارة تتقدم كل فرقة تلي الأخرى بعدة دقائق، وعندما تنضم كل فرقة للجيش تكبر فيكبر الجيش بأكمله، وليتأخر عدد من الجنود فيثيروا الأتربة، فيظن العدو بأنَّ هناك مددًا كبيرًا أتى إلينا من المدينة، وبذلك نستطيع خداعهم، أناس جدد وجنود جدد فيقذف اللَّه في قلوبهم الرعب بإذنهِ تعالى.

فقال الجمع:

وهل هذا كل شيء يا خالد؟

أجاب:

لا، بل سنهجم بعد ذلك هجمة واحدة عليهم، ونحمل فيها كل ما نستطيع من قوة؛ لكي يتأكدوا أننا لن ننسحب من المعركة، ولكننا سنقوم بعمل كمين لهم فلا يتابعونا.

فقال الجميع:

موافقون يا خالد.

وبالفعل سهر المسلمون هذهِ الليلة المباركة، وكُلٌّ منهم يقوم بغسل ملابسه والانتقال في هدوء إلى مكانه الآخر.. الميمنة تتجه للميسرة، والقلب للمؤخرة، والعكس بهدوء؛ كي لا يشعر بهم أحد من الأعداء.

وانتقلت مجموعة من الفرسان إلى مكان بعيد عن معسكر المسلمين، وانتظروا الأوامر من قائدهم الهمام الشجاع.

وبالفعل انبلج النهار وسطعت أضواؤه على أرض المعركة، واستعد الفريقان لمعركة جديدة، وفصل جديد في فصول هذهِ المعركة، التي فوجئ فيها العدو بهؤلاء الرجال الذين يحبون الموت ويتمنون الشهادة.

لقد جاءوا إلى أرض المعركة يظنون أنَّ المسلمين ليسوا سوى مجموعة من الهمج الشراذم القليلة العدد، التي سيقضون عليهم بمنتهى السهولة دون خسائر منهم، فهي أشبه بالنزهة الحربية.. ولكن ما لاقوه فعلًا كان صدمة لهم.

أجل، المسلمون قليلو العدد بالمقاييس البشرية، ولكنهم أقوياء بإيمانهم، وبمساندة ونصرة اللَّه لهم.

وعندما انبلجت أضواء الصباح، صُدم العدو بأن وجد الأشكال والوجوه التي اعتادوا عليها، من المسلمين في اليومين الماضيين قد تغيرت! وأُسقط في قلوبهم أنَّ المسلمين قد جاء إليهم مدد من المدينة، فقال بعضهم لبعض:

لم نستطع هزيمة هذا العدد القليل ويرسلون لهم بمدد، واللَّه إننا لخاسرون.

وسقطت معنوياتهم في أسفل سافلين عندما شاهدوا من بعيد غبارًا كثيفًا، وفي كل لحظة يدخل مجموعة من الفرسان متراصين متلاحمين، فيهتف المسلمون بأعلى أصواتهم:

اللَّهُ أكبر... اللَّهُ أكبر.

وتتزلزل قلوب الأعداء ويبث اللَّه في قلوبهم الرعب، وكان على الطرف الآخر خالد ومَن معه من المسلمين يستحثون بعضهم البعض على كثافة الحركة؛ لكي يرتفع الغبار إلى أعلى مكان ليبث اللَّه الرعب في قلوب الأعداء، ويعذبهم بأيديهم.

عندما اكتملت الخدعة بالفعل، وانطلت على معسكر العدو، وظهر ذلك جليًا في وجوههم، صرخ خالد بأعلى صوته:

اللَّهُ أكبر.

وحمل على المشركين وحمل معهُ باقي المسلمين، ونجحوا في اختراق دفاعاتهم وقوتهم، حتّى قتلوا منهم ما يزيد على ألف جندي، وسط الرعب والذهول اللذين انتابا كل من أفراد هذا الجيش، ولم يكن لهم حول ولا قوة، ولم يدفعوا عن أنفسهم ما يصيبهم من إصابة أو قتل على يد سيف اللَّه المسلول وصحبه.

وبعد أن قام المسلمون بتلك الضربة القوية المميتة، ارتدوا على أعقابهم منسحبين كما خطط لهم خالد، ذلك القائد المغوار، وعادوا إلى أماكنهم منسحبين في ضجة.

أمرهم خالد بالانسحاب بصوتٍ عالٍ، فتبعه المسلمون حتّى اقتربوا من معسكرهم، وعند وصولهم إلى ذلك الحد لم يتقدم جند الأعداء خطوة واحدة.. وحدث ما توقعهُ_ رضي اللَّهُ عنه، ولم يُحركوا ساكنًا، وخاف القادة قبل الجند من وجود كمين أعده لهم المسلمون، وهتف بعضهم لبعض: لا تتقدموا، إنَّهُ كمين.

لم يكونوا يتصورون أنَّهُ بعد أن جاء للمسلمين مددًا سوف ينسحبون، وظلوا في معسكرهم ثلاثة أيام كاملة ويزيد، يخافون من دخول أرض مؤتة، ومن الكمين الذي نصبه لهم المسلمون، ولم يعرفوا بأنَّ خالد بن الوليد وجيشه قد خدعهم بخدعة لم يروا مثلها، إلا بعد أن وصلتهم أخبار عن عودة المسلمين سالمين آمنين إلى أرض المدينة المنورة، التي استقبلهم فيها رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، أفضل استقبال، وأثنى على قائدهم وعلى شجاعتهم، وأخبرهم أنهم هم الكرار وليسوا بالفرار، فليس من الشجاعة أن يموتوا عن آخرهم في معركة مؤتة، ولكنّ الشجاعة أنهم قاموا بما أمرهم بهِ رسول اللَّه، وأدبوا أهل الشمال وعادوا سالمين إلى أرض المدينة؛ لينحازوا إلى باقي المسلمين. ويعاونوهم في نشر الإسلام، وتصبح مؤتة أول معارك خالد بن الوليد كقائد في الإسلام، ولا زالت حتّى وقتنا الحالي تدرس طريقة إنسحاب خالد بن الوليد، في أكبر المعاهد العسكرية العالمية، كأفضل طريقة

للإنسحاب على مرّ العصور، الإنسحاب للمنتصر بعد تحقيق الأغراض المرادة من القائد وجيشه.

وظل خالد بن الوليد كقائد وجندي، وسيف اللَّه الذي استله على أعدائه، رغم كل ما يريده المغرضون والمشككون والمتأولون على خالد رضي اللَّهُ عنه، فهو من أفاضل الصحابة الكرام، وله فضل على كثير منا الآن في سبب اعتناقنا الإسلام، فقد حررنا من العبودية الشركية منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

خاتمة

هذهِ المعركة أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨ هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م.

ومؤتة (بالضم ثُمَّ السكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

[سبب المعركة]

وسبب هذهِ المعركة أنَّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانية وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام، من قبل قيصر فأوثقه رباطًا، ثُمَّ قدمه فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل «١»، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

[أمراء الجيش ووصية رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم]

أمر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد اللَّه بن رواحة، وعقد لهم لواءً أبيض، ودفعهُ إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا باللَّهِ عليهم وقاتلوهم، وقال لهم: «اغزوا بسم اللَّه في سبيل اللَّه مَن كفر».

من كتاب الرحيق المختوم.

سلمان الفارسي

كان الفتى لم يبلغ الثامنة عشر، وهو وحيد أبيه، زعيم قرية تُدعى (جيان) توجد في مدينة (أصفهان) الفارسية، وأغنى رجالها، ومنذ بلوغه التحق بخدمة النار التي يعبدها أهل فارس وتُسمى بالديانة المجوسية، واجتهد كثيرًا في تلك العبادة حتّى أصبح القيّم على النار المقدسة؛ فهو الذي يغذيها دومًا حتّى لا تنطفئ أبدًا.

كان الفتى سلمان يرتبط بالدين والعبادة ارتباطًا شديدًا، فيشعر أنَّهُ قد خُلق لذلك، عابد زاهد ينتظره مستقبل كلّه في التقرب لآلهة النار، ولم يكن غنى أبيه ليصرفه عن العبادة؛ فقد كان يواظب على الذهاب للمعبد حتى يتفقه في أمور دينه (المجوسية).

أمَّا أبوه فكان سعيدًا بهِ سعادةً بالغة، فهذا هو ابنه الوحيد بدأ يأخذ دوره في الحياة بقوة، وأصبح له مستقبل باهر في المعبد، وربما أصبح في يوم من الأيام كبير الكهان، ويجمع بذلك بين العظمة في المال والجاه والدين، وهذا ما يتمناه أي أبٍّ لولده.

وبذلك أصبح الأبّ أكثر اهتمامًا بولده الذي ظهر نبوغه من صغره، وكلما مر الوقت كلما زاد حبه وخوفه على سلمان، لذا قرر أن يبعده عن كل ما يمكن أن يسيء إليهِ، أو حتّى يشغله عن هذا الطريق الناجح، وأبعده عن كل ما يشغله من بحث عن المال، أو السعي في أعمال أخرى غير دراسته للمجوسية.

كان الأبّ يملك ضيعة كبيرة، وكان يشرف عليها بنفسه؛ فقد كانت تخرج الكثير من المزروعات وأيضًا الأموال، ولذا يذهب لها في كل يوم ليطمئن على المزروعات وسير العمل فيها، ولم يدع سلمان

يذهب إليها؛ كي لا يؤخره عن الاجتهاد في المجوسية، ولكنَّهُ في أحد الأيام انشغل بشيء ما ولم يستطع الذهاب، لذا قال:

"لماذا لا أدع سلمان يذهب إلى الضيعة فيراها ويعلمَ كيف يسير العمل فيها؟

فهذا لن يضره في شيء، ولقد كبر الآن ويجب أن يتعلم كيف يدير أملاكه."

وبالفعل استدعى الأبّ سلمان وقال له:

"يا بني، لقد كبرت الآن، وإنّ مشاغلي أصبحت كثيرة، لذا اذهب إلى ضيعتنا الآن، واطمئن على سير العمل فيها، ولكن لا تتأخر هناك."

أسرع سلمان قائلًا:

كما تأمر يا أبي.

واتجه سلمان إلى الضيعة وهو سعيد، فأخيرًا جعله أباهُ يذهب وحده في مهمة بعيدة كهذه، وبينما هو يسير، مر بجوار كنيسة من كنائس المسيحيين، وسمع من داخلها صوت صلاتهم، فأعجبه ما سمعه من تلك الأصوات، فقرر الدخول ليرى بنفسه ما بالداخل، وبالفعل دخل إليهم واستمع ورأى ما يفعلون، فقال:

إنَّ هذا الدين هو خير من ديني، ومن عبادة النار هذهِ التي لا تضر ولا تنفع، وقليل من الماء يطفئها، فاللَّه لا بُدّ وأن يكون متواجدًا

دائمًا، والنار يجب أنْ نبقيها نحن مشتعلة، وإذا سهونا عنها انطفأت، فكيف تكون إلهًا؟

جلسَ سلمان معهم وقتًا طويلًا، فمنذ الصباح الباكر وهو في الكنيسة يستمع لأقوال الرهبان، ويرى خشوعهم في الصلاة، فآمن على الفور بالمسيحية دينًا بدلًا من عبادة النار.

تأخر الوقت وكان يجب عليه العودة إلى المنزل، كي لا يخاف عليه أبيه، فاتجه نحو كبير الرهبان وسأله:

يا سيدي، أين أستطيع تعلم هذا الدين وأعلم عنه المزيد؟

ومن أين خرج؟

وأين أصله؟

فأجاب الراهب:

إنَّ أصل هذا الدين وذروته في الشام، فاذهب إلى هناك لعلك تدرك بعض الرجال الصالحين فتتعلم منهم.

خرج سلمان مسرعًا، وقد غربت الشمس وأقبل الليل، وذهب إلى بيته، وعند دخوله وجد أباه قد أصابه القلق على تأخره، حتى ذلك الوقت من الليل، وعندما رآه أسرع إليهِ وعلى وجهه أمارات الغضب وقال في شدة:

أين كنت يا سلمان حتّى هذا الوقت المتأخر؟ ولماذا تأخرت في الضيعة؟

فقال سلمان بصدق:

إنني لم أذهب إلى المزرعة يا أبي.

فقال الأب وهو غاضب:

أين كنت طوال هذا الوقت إذًا؟

فقال سلمان:

يا أبي، لقد مررت بكنيسة يتعبد فيها النصارى فأعجبني قولهم وصلاتهم، فجلست معهم حتى غربت الشمس، وأعجبني ذلك الدين، وإنني أريد الدخول فيه.

أصاب الأب الذعر عندما سمع ذلك الحديث من سلمان، فأسرع قائلًا:

يا بني، إنَّ دينك المجوسية هو الدين الحق، فهو دينك ودين آبائك، وليس في هذا الدين الذي تذكره خير.

فأجاب سلمان مسرعًا:

لا واللَّه يا أبي، إنَّ هذا الدين هو خير من ديننا.

تعاظم في نفس الأب الذعر، فقال بصوتٍ غاضب:

لن أتركك تضيع كل ما بنيته من أجلك لهذا الدين، فإنَّكَ لن تخرج من هذا المنزل حتى تعود لعقلك وتترك ما تقوله.

وبالفعل قام الأب بحبس سلمان في غرفة وحيد، لا يدخل عليه أحد إلا بالطعام، بل ووضع في قدمه السلاسل حتّى لا يستطيع الحركة أو الخروج والهرب.

ظل سلمان في هذا الحبس وهو على يقين بأنه على حق، ولكن ماذا يفعل؟

حتى قدم عليه أحد أصدقائه في يوم من الأيام، فسمح له الأب بمقابلة سلمان بعد طول الوقت في هذا الحبس، فحكى سلمان لصديقه عما حدث، وقال له:

اذهب إلى الراهب في الكنيسة، وقل له أن يخبرك عن ميعاد أول قافلة متجهة إلى الشام.

وبالفعل قام صديقه بتوصيل الرسالة، وعندما أتت قافلة من الشام أرسل الراهب لسلمان ليخبره عن وصول القافلة، فأرسل له سلمان بأنْ يخبره بموعد خروج القافلة.

وبالفعل أرسل الراهب لسلمان بموعد خروج القافلة، فاستعد سلمان للهروب من المنزل بعد أن استعان بصديقه لفك قيوده، وفي الوقت المحدد خرج سلمان واتجه نحو القافلة ولحق بها، وترك كل شيء وراءه من مال وجاه وأهل؛ لكي يبحث عن الدين الحق، ولذا لقب بالباحث عن الحقيقة.

وعندما وصل سلمان إلى الشام سار في طريقه، وأخذ يسأل الناس ويقول:

مَن أفضل رجل في المسيحية؟ وأين أجده؟

فأجابه الناس:

إنَّ أفضل النصارى هو الأسقف راعي الكنيسة.

فأسرع سلمان إلى الكنيسة، وطلب مقابلة الأسقف وحكى له حكايته، وكيف أنَّهُ هرب من أهل المجوسية، وأتى إلى الشام هاربًا من عبادة النار راغبًا في تعلم الحقيقة، ثُمَّ قال:

إني رغبت في النصرانية، وأود أن أبقى معك لأخدمك، وأتعلم منك وأُصلّي معك.

فأجابه الأسقف إلى طلبه وأدخله الكنيسة وألحقه بخدمته، وظلّ سلمان يتبعهُ ويرى ما يفعله حتّى أصابته خيبة الأمل، ممّا رآه من فعل الأسقف.

لقد رآه ينصح الناس في الصلوات بأن ينفقوا على الفقراء والمساكين، فيقوم الناس بإعطائه الصدقات، ولكنّه لا يقوم بإنفاقها على الفقراء، بل العكس، عندما يأتي له الفقير ليأخذ الصدقة، يكذب عليه ويقول إنَّهُ لا توجد لديه أموال وأنَّ كل الصدقات قد انتهت.

ظلّ سلمان يتبعه حتّى علم أنه يخفي أموال الصدقات، التي يدفعها الناس في مكان خفيّ، حتّى بلغ ما يملكه من الأموال سبعة قلال من الأموال والذهب والفضة، فلم يدرِ ماذا يفعل أو مَن يخبره بهذا الحديث، ولذا كرهه سلمان كرهًا شديدًا لما رآه منه.

ولكنّ اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، لم يمهل هذا الأسقف كثيرًا فمات، وسلمان لا يزال في خدمته، فجاء الناس من جميع أنحاء البلدة ليدفنوا هذا الأسقف، ولكنّ سلمان لم يحتمل أن يرى كل هؤلاء

الناس مخدوعين في هذا الرجل السيّئ، فوقف بين من أتى منهم للدفن وقال:

إنَّ هذا الأسقف كان رجلًا سيئًا، فقد كان يأمركم بالصدقات ويرغبكم فيها، ومع ذلك كان لا ينفق منها شيئًا على الفقراء، بل يكتنزها لنفسه.

هاج الناس وغضبوا لقول سلمان هذا، فكيف يسبّ الأسقف؟ ويقول عنه إنه لص؟

ولكن بعضهم سأله ليتبينوا الأمر:

من أين عرفت ذلك؟ ويلٌ لك إن كنت كاذبًا.

فقال سلمان:

أنا أدلكم على كنزه، على مكان تلك الأموال.

فقالوا له:

نعم، دلنا عليها.

فأخذهم سلمان لموضع الكنز، فوجدوا سبعة قلال من الذهب كان يخفيها ذلك الأسقف، فعلموا أنَّ سلمان صادق وقالوا:

واللَّه لا ندفن هذا الخائن.

ثُمَّ صلبوه ورجموه بالحجارة، وانتهت تلك الفترة، وعلم الجميع بصدق سلمان وورعه، الذي كان من الممكن أن يأخذ تلك الأموال لنفسه دون أن يعلم أحد.

لم يمضِ وقت طويل حتّى نصب الناس أسقفًا آخر غير ذاك الذي مات، ولكن الاختلاف كان كبيرًا، فقد كان هذا الأسقف أزهد الناس الذين رآهم سلمان وأكثرهم دينًا، كان يُصلّي بالليل ويتعبد بالنهار، فأحبّهُ سلمان حبًا كبيرًا لما رآه منه، وما تعلمه منه من العبادة الحقة والعلم الغزير، ولكن سرعان ما وافته المنية، وأصبح أقرب للموت منه للحياة. فقال له سلمان وهو على فراش الموت:

أيها الأسقف، إنك تعرف عني كل شيء، فأين أذهب لأتعلم العلم الصحيح؟ ولمَن توصي بي؟

فقال الأسقف:

يا بني، إنني لا أعلم من أهل الأرض مَن هو على الدين الصحيح، لم يحرفه أو يكذب على اللَّه سوى رجل واحد في الموصل (مدينة على نهر دجلة بالعراق)، فالحق بهِ واذهب لخدمته وتعلم منه ما تريده.

ولم يمضِ وقت طويل حتّى مات هذا الأسقف الزاهد، فخرج سلمان بعد دفنه واتجه من فوره إلى ذلك العابد، الذي أخبره عنه الأسقف في الموصل، حتّى وصل إليه، فحكى لهُ حكايته من بدايتها حتّى وفاة الأسقف، ثُمَّ قال له:

إنَّ الأسقف قبل وفاته قد أوصاني أن ألحق بخدمتك، وأخبرني أنك مستمسك بما كان عليه من الدين الحقّ دون تحريف.

فقال له ذلك العابد:

أقم عندي يا بني.

وبالفعل بقي سلمان ووجد العابد على نفس النهج الحسن، والزهد والورع والإيمان الحق باللَّه، ولكن بعد فترة من الوقت أطلت منيته، فجلس سلمان بجانبه وقال له:

سيدي، إنك تعلم عني كل شيء، وأريد أن توصي بي لأحد أعبد اللَّه معه عبادة حقة، فمَن توصيني أن ألحق بخدمته؟

فقال العابد العالم:

يا بني، إنني لا أعلم من أهل الأرض من لا يزال متمسكًا بالدين الحق لم يبدله، ولا يزال على ما كنا عليه سوى رجل في نصيبين _مدينة بين الموصل والشام، فاذهب إليهِ والحَقْ بخدمته.

مرّ وقت قصير وتوفي الرجل، وبعد الدفن رحل سلمان في طريقه إلى نصيبين، وبحث عن ذلك الرجل حتّى وجده، وحكى لهُ حكايته من البداية حتّى موت العابد في الموصل، وسأله البقاء معه للتعلم والعبادة فوافق الرجل على ذلك.

وبقي معه سلمان، يعبدان اللَّه معًا حتّى أتى أمر اللَّه لهذا الرجل، فسأله سلمان كما سأل أصحابه الذين توفوا قبله فقال له الرجل:

واللَّه يا سلمان لا أعلم مَن يعبد اللَّه كما كنا نعبده، سوى رجل في عمورية _مدينة أعلى الشام، لا يزال متمسكًا بالدين الحق.

وبعد وفاة ذلك الرجل ذهب سلمان إلى عمورية، ووجد ذلك الرجل فحكى لهُ حكايته بأكملها، وبداية بحثه عن الحقيقة حتّى وصوله إليهِ، فسمح لهُ الرجل بالبقاء عنده ليعبدا اللَّه معًا حق عبادته.

ومرّ على سلمان الوقت وهو يعبد اللَّه مع ذلك الرجل، حتّى أتته الوفاة كمثل أصحابه، فسأله سلمان كما سأل أصحابه، فقال له الرجل:

واللَّه يا بني إنني لا أعلم أحدًا من أهل الأرض، لا يزال متمسكًا بالدين الحق الذي نحن عليه، ونحن نعبد اللَّه حق عبادته، ولكن هذا هو زمان النبي الأُمّي الذي يخرج من أرض الجزيرة العربية، يخرجه أهله من قريتهم، فيخرج إلى أرض مليئة بالنخيل مهاجرًا إليها، ولهُ علامات لا تخفى.

فسأله سلمان بلهفة:

وما هي تلك العلامات؟

فقال الرجل:

إنَّهُ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، فالحَقْ بهِ يا سلمان، فإنَّهُ أُرسل بالدين الحق دين إبراهيم _عليهِ السلام، وهو آخر الأنبياء والمرسلين، فإنْ لحقت بهِ فقاتل معهُ وانصره.

فقال سلمان بسرعة:

سأفعل إنْ شاء اللَّه.

ولم يمضِ وقت طويل حتّى توفي ذلك الرجل العابد، وظل سلمان ينتظر مَن يذهب معهُ إلى الجزيرة العربية، إلى أرض النخيل ومهجر النبي المنتظر.

وفي تلك الأثناء امتلك بعض الأغنام والأبقار، وظل يرعاها حتّى وصلت قافلة من قبيلة (كلب) من الجزيرة إلى عمورية بعد زمن، فذهب إليهم سلمان وقال:

هل أُعطيكم بقراتي وأغنامي هذهِ على أن تنقلوني معكم إلى الجزيرة العربية؟

فقالوا له بكل حماس:

نعم نحملك معنا إلى هناك.

فأعطاهم سلمان أغنامه وأبقاره، وسار معهم في مرحلة أُخرى من مراحل البحث عن الحقيقة.

سار سلمان معهم وبعد أن خرجوا من أرض الشام، ووصلوا إلى بداية أرض الجزيرة، اتفق هؤلاء الرجال على الغدر بسلمان، فقال بعضهم لبعض:

إنَّ هذا الرجل وحيد ليسَ معهُ أحد، ونحن الآن بعيدًا عن بلده وأرضه فلنأخذه عبدًا، ونبيعه حتى نكسب من ورائه ثمنًا غاليًا، فيبدو أنَّهُ ذو قوة وسيباع بثمن عالٍ.

وبالفعل اتفق الجميع على أن يقوموا بأسر سلمان، وبيعه لرجل من مكان يدعى (أرض القرى) بالقرب من المدينة المنورة، وكان ذلك الرجل يهوديًا واشتري سلمان لما وجده فيهِ من قوة، ولم يفلح سلمان في التخلص من ذلك الغدر، فاستسلم لمصيره على أمل أن يأتي اليوم الذي يظهر فيهِ النبيّ الأُمّي من أرض العرب.

ذهب بهِ سيده اليهودي الذي اشتراه إلى وادي القرى، وكانت أرضًا ذات نخل، ولكن سلمان شعر بأنها ليست الأرض الموعودة، حتّى جاء إلى صاحبه رجل يهودي آخر فرأى سلمان فأعجبه، فاشتراه من سيده الأول وأخذه إلى بلده الجديد، وهي المدينة المنورة.

عندما اقترب سلمان من المدينة ووقع عليها نظره، شعر مُنذُ الوهلة الأولى أنها هي الأرض، التي وصفها له صاحبه بعمورية، ففرح بذلك وأقام مع سيده اليهودي في (بني قريظة) في انتظار هجرة النبي.

أثناء ذلك الوقت، كان محمد رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يدعو الناس في مكة المكرمة، ولكن سلمان لم يعرف عنهُ شيئًا، وذلك لانشغاله بما يفرضه الرق والعبودية من واجبات وأعباء، ولكن في قرارة نفسه كان يقبل بالمصير الذي وضعهُ اللَّه سُبحانَهُ وتعالى فيه.

مرّ بعض الوقت وهاجر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، من مكة إلى المدينة، ولم يكن سلمان قد علم بشيء مما يحدث للأعمال الكثيرة، التي كان سيده يكلفه بها.

وفي أحد الأيام، وبعد وصول النبي الكريم _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، كان سلمان فوق نخلة يعمل بها، وكان سيده يقف تحت النخلة، فوجد ابن عم سيده وهو يقول بسرعة:

إنَّ هناك رجلًا يدّعي أنَّهُ نبي جاء من مكة بعد أن أخرجه أهلها منها، والأوس والخزرج يجتمعون حوله في قباء، قاتلهم اللَّه.

سمع سلمان هذهِ الكلمات فشعر باضطراب كبير وفرحة شديدة، وكاد يسقط من أعلى النخلة فوق سيده من شدة المفاجأة، ونزل بسرعة من أعلى النخلة، وهو يصرخ في الرجل، ويقول:

ماذا تقول؟ أعد عليَّ ما قلتهُ مرّةً أُخرى.

ولكنّ سيده غضب غضبًا شديدًا، ولكّمهُ في وجهه لكمة شديدة، وقال:

مالك وهذا الحديث؟

أكمل العمل الذي كنت تقوم به.

أسرع سلمان ليتم عمله وهو في قمة الشوق، لينتهي سريعًا ليذهب، ويتأكد من صحة هذا الخبر. وبعد مجيء المساء وانتهاء سلمان من أعماله، قرر أن يذهب إلى المدينة، ويتأكد من النبي بصفاته التي وصفها له صاحبه.

جمع سلمان بعض التمر وذهب إلى مكان تجمع المسلمين في قباء، فدخل على الرسول _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وحوله أصحابه فقال سلمان:

لقد علمت أنَّكَ رجلٌ صالح ومعك أصحاب غرباء، وكان عندي بعض التمر أخرجه كصدقة، فرأيت أنكم أحق بهِ من غيركم.

قرّب سلمان التمر من رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فأخذهُ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقرّبهُ لأصحابهِ، وقال لهم: "كلوا بِسْمِ اللَّه".

ونظر سلمان فإذا الجميع قد أكل، ولكنَّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، لم يمدّ يدهُ إلى التمر، فقال سلمان في نفسه:

هذهِ هي الصفة الأولى، فهو لا يأكل الصدقة.

ثُمَّ عاد سلمان مرّة أُخرى، وجمع بعضًا من التمر وذهب إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، اليوم التالي، فوجده قد ترك قباء ونزل إلى المدينة، فأسرع إليهِ وهو وسط أصحابه، وقدّم إليهِ التمر وقال له:

لقد رأيت أنَّكَ لا تأكل الصدقة، فهذا التمر هو هدية منّي إليك.

فأكل رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، منها، وأمر أصحابه أن يأكلوا منها فقال سلمان في نفسه:

هذهِ هي الصفة الثانية، فهو يأكل الهدية.

ذهب سلمان ثُمَّ عاد مرّة أُخرى إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وهو في البقيع يدفن أحد أصحابه الموتى، وقد كان يرتدي ملابس من قطعتين، فوقف سلمان خلفه يريد أن يتأكد من خاتم النبوة الموجود على كتفهِ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وظل يسير وراءه فأحس بهِ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وعلم بما يريد فكشف عن كتفه أمام سلمان، فرأى سلمان خاتم النبوة، فانكب سلمان يُقبّل رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ويبكي بكاءً شديدًا، فها هو قد وجد النبي الذي بعثه اللَّه سُبحانَهُ وتعالى، ليعيد الدين الحق إلى يوم الدين، فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

ما خبرك؟

فجلس سلمان بين يدي رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وحكى لهُ عن قصتهِ بأكملها حتّى مجيئه إلى المدينة، وكيف أنَّهُ وقع في الرق ظلمًا وعدوانًا، فأعجب بهِ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقال لهُ أن يخبر بها أصحابه الذين عجبوا منها، ومن إصرار سلمان على الوصول للحقيقة، والتعبد للَّهِ عز وجل، والمشاق التي لاقاها في سبيل الوصول لغايته.

مرّ الوقت على سلمان رضي اللَّهُ عنه، وهو يجتهد في تعلم الإسلام وحفظ القرآن كما اجتهد في دراسة المسيحية، وحفظ الإنجيل، وكلما استطاع أن يفرغ من واجبات أعمال العبودية ذهب إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولكنّ ذلك الرق لم يسمح لهُ بأن يقاتل بجوار المسلمين في غزوتي بدر وأُحد، وكان _رضي اللَّهُ عنه، يشعر بالألم؛ وذلك لعدم مقدرته على القتال لنصرة دين اللَّه.

ذهب سلمان إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وهو حزين لعدم استطاعته الجهاد في سبيل اللَّه، فقال لهُ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بعد أن علم ما به:

"كاتب يا سلمان، أي اتفق مع سيدك على مبلغ من المال ليعتقك".

فأسرع سلمان إلى سيده اليهودي، وكاتبهُ على فك رقبته في مقابل زراعة ثلاثمائة نخلة، وشيء من الذهب، ولكنّ سلمان لم يكن يملك ذلك المال، أو حتّى لا يضمن زراعة النخل ونموه سليمًا،

فذهب إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وأخبره عن ذلك، فقال لأصحابه:

"أعينوا أخاكم".

أسرع المسلمون جميعًا في إعطاء سلمان _رضي اللَّهُ عنه، كُلٌّ على حسب مقدرته، حتّى اجتمعت لديه ثلاثمائة ودية (نخلة صغيرة)، فقال لهُ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

"اذهب يا سلمان فاحفر لها، أي احفر لها حفرًا صغيرة في الأرض، فإذا فرغت فأتني أكون أنا واضعها بيدي".

أسرع سلمان وبدأ في الحفر لوضع تلك الفسائل، وذهب معهُ بعض المسلمين؛ لكي يساعدونه في الحفر لينجز الأمر سريعًا ويتحرر من رق العبودية، فقد كان يتوق للتحرر، والوقوف مع المسلمين في معركتهم لإظهار الحق والعدل.

وبعد انتهائه وأصحابه من الحفر، ذهب سلمان لرسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وأخبره بما فعل، فقام معهُ وذهب إلى حيث المكان، وأصبح سلمان يقرب إليه الفسيلة فيضعها رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بيديه الشريفتين في مكانها.

وبعد أن انتهى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من، ذلك، انتظر سلمان حتّى ينمو النخل قليلًا، وكان العجب كلّه من بركة يدي رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فلم تمت فسيلة واحدة مما وضعها، وكان من الطبيعي أن تموت بعضها، ولكنها إرادة اللَّه وبركة رسوله.

ومرّ بعد ذلك فترة من الزمن، وسلمان يحاول قدر الإمكان توفير الأموال الباقية عليه ليفك أسره، ولكنّ المال لم يجتمع لديه، وفي أحد الأيام وجد أحد المسلمين يأتي إليهِ، ويقول:

"يا سلمان، إنَّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، سأل اليوم وقال: ما فعل سلمان المكاتب؟

فاذهب إليهِ يا سلمان".

أسرع سلمان إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فسأله عن المال الذي عليه، فأجاب سلمان:

"إنني لا أملك ما يكفي من المال لأكمل به ما عليّ من دين".

أخذ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بمثل بيضة الدجاجة من ذهب، وأعطاها لسلمان، وقال:

"خذ هذهِ يا سلمان وأدّ ما عليك".

فقال سلمان بدهشة:

"إنها لا تكفي ما عليَّ من دين".

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

"خذها فإنَّ اللَّه سيؤديها عنك".

فأخذها سلمان وذهب إلى اليهودي، وكم كانت دهشته عندما وزنها فوجد أنها تزن أربعين أوقية من الذهب، التي كانت عليه، فأخذها اليهودي وأعتق سلمان من عذاب الرق ببركة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

ومنذُ لحظة عتق سلمان أصبح ملازمًا لرسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يتعلم منه، حتى أصبح من كبار الصحابة، وجمع بذلك بين الكتابين الإنجيل والقرآن الكريم، ولذا لقبهُ الصحابة بصاحب الكتابين.

وبعد ذلك أقام سلمان بعض الأيام عند أبي الدرداء، أحد الصحابة العظام، فرأى أنَّ أبا الدرداء كثير العبادة، فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار، ولكنّ سلمان كان يأخذ عليهِ مبالغته في العبادة.

في يوم من الأيام، حاول سلمان أن يجعلهُ لا يصوم ذلك اليوم نافلة للَّهِ عزّ وجلّ، فقال له أبو الدرداء وهو يعاتبه:

أتمنعني أن أصوم لربي وأتقرب إليهِ وأُصلّي؟

فقال سلمان بهدوءٍ وحكمة:

إنَّ لجسدك عليك حق، ولأهلك عليك حق، فصم وأفطر، وصلِّ ونام، واعبد اللَّه ولتعطِ كل ذي حقٍ حقه.

حكى أبو الدرداء ما قال له سلمان فبلغ ذلك رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فقال مبتسمًا:

لقد أشبع سلمان علمًا.

ومر الوقت على سلمان وهو في كنف رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فأحبّهُ رسول اللَّه لذكائه وعلمه الغزير، وكان يمدحه على دينه وعلمه، ظل هكذا حتّى جاء الوقت الذي تجلت فيه عبقرية سلمان.

اجتمع المشركون من كل مكان في العام الرابع للهجرة، يريدون الهجوم على المدينة المنورة، وجمعوا الكثير من المحاربين من مختلف القبائل؛ للهجوم في غزوة الأحزاب، بالاتفاق مع اليهود الغادرين في المدينة وخيبر، ويتعاون الجميع على قتال المسلمين فتهاجم قريش وباقي الأحزاب المدينة من خارجها، ويهاجم اليهود المسلمين من الداخل، وبذلك يقع المسلمون في الفخ الذي سيقضي عليهم فيه.

علم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بذلك فاجتمع بكبار الصحابة ليتشاوروا في الأمر؛ إذ كان خطيرًا.

أخذ الجميع يتحاورون في ذلك وفي البحث عن الحل المناسب، وانقسمت الآراء بين مَن يريد الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، وستكون بيوتهم عرضة لغدر اليهود، ومَن أراد البقاء في المدينة، ولقاء المشركين واليهود معًا في معركة غير متكافئة.

قام سلمان وسط الصحابة الكرام، ونظر إلى المدينة نظرة شاملة، وبعد أن ألهمهُ اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، بفكرة مثالية طرحها على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فوافق على الفور وشرع في تنفيذها، ولكن ما هي هذهِ الفكرة؟

لقد وجد سلمان المدينة منيعة من الجهات كلها، بالصخور الطبيعية والجبال، وخصوم اليهود، ما عدا جهة واحدة تمثل فجوة كبيرة، يستطيع العدو الدخول منها، فتذكر ما كانت عليهِ أساليب الحرب في فارس قديمًا وأشار على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّم، بحفر خندق كبير يمنع المشركين من الهجوم، ويوقفهم قبل دخول المدينة، ومَن يحاول الدخول منهم يرميه المسلمون بالسهام، أو يقاتلونهم من عَلٍ فينتصرون بإذن اللَّه.

وبدأ المسلمون في حفر الخندق، وكان رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يحفر معهم الخندق بنفسه؛ ليرغبهم بالعمل فيه.

وفي الرقعة التي يعمل فيها سلمان مع فريقه وصحبه، ظهرت أمامهم صخرة قوية لم تنفع جميع محاولاتهم لكسرها أو تحطيمها، وكان سلمان قوي البنية ضربة واحدة منه تفلق الصخر وتنشره شظايا، ولكنّهُ وقف أمام هذهِ الصخرة عاجزًا، وتناوب عليها ومَن معه جميعًا فزادتهم رهقًا ولم تتحطم في النهاية!!

ذهب سلمان إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يستأذنه في أن يغيروا مجرى الحفر تفاديًا لتلك الصخرة الصلبة القوية، فذهب معهُ الرسول _عليه الصلاة والسلام، يُعاين بنفسه المكان والصخرة، وحين رآها أمر المسلمين أن يعطوه معولًا، وطلب من أصحابه أن يبتعدوا قليلًا عن مرمى الشظايا، التي تتناثر منها وسمّى باللَّه، ورفع كلتا يديهِ الشريفتين القابضتين على المعول في عزمٍ وقوة، وهوى بهِ على الصخرة، فإذا بها تتصدع ويحدث بها شرخ كبير، ويخرج من وسط صدعها الكبير وهج عالٍ مضيء، يضئ وينير أرجاء المدينة بأكملها، وهتف رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، مكبرًا:

"اللَّهُ أكبر..أُعطيت مفاتيح فارس، ولقد أضاء لي منها قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وإنَّ أُمّتي ظاهرة عليها".

ثُمَّ رفع المعول، وهوت ضربته الثانية، فتكرر الضوء والوهج مرّة أُخرى، وهتف الرسول _عليه السلام، مكبرًا:

"اللَّهُ أكبر.. أُعطيت مفاتيح الروم، وقد أضاء لي منها قصورها الحمراء، وإنَّ أُمّتي ظاهرة عليها".

ثُمَّ ضرب ضربته الثالثة فتناثرت شظايا الصخرة، وتفتت إلى قطعٍ صغيرة جدًّا، وأضاء برقها الشديد الباهر، وهلل الرسول وهلل المسلمون معه، وأنبأهم أنَّهُ يبصر الآن قصور سوريا وصنعاء وسواها من مدائن الأرض، التي ستخفق فوقها راية اللَّه يومًا، وصاح المسلمون في إيمان عظيم:

هذا ما وعدنا اللَّهُ ورسوله.

ولم يداخلهم شك في نصر اللَّه، رغم قدوم المشركين من كل مكان لمحاربتهم، وزاد سلمان شرفًا من اللَّهِ جل وعلا، وزاد احترام المسلمين له بعد يوم الخندق، والنصر الذي حققه اللَّه عز وجل للمسلمين على المشركين، وكفاهم شر القتال.

اجتمع المسلمون في حضرة رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، في يومٍ من الأيام يتناقشون في سلمان، ولمَن ينتسب وتهافت الجميع على نسب سلمان؛ لما له من أفضلية وإيمان وعلم، فقالت الأنصار من أهل المدينة:

"سلمان منا نحن الأنصار."

فوقف المهاجرون وقالوا:

"بل سلمان منا نحن المهاجرون."

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

"بل سلمان منّا نحنُ آل البيت."

وبذلك أصبح سلمان _رضي اللَّهُ عنه، من أهل البيت، وكان هذا أعظم تشريف وأجلّه، وكان عن استحقاق وعاش في كنف رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يحضر معه الغزوات كلها ولا يتخلف في أي منها، وكان الرسول الكريم يقول:

"إنَّ الجنّة لتشتاق إلى ثلاثة.. علي وعمّار وسلمان." وبذلك وصل سلمان لأعلى المراتب والدرجات لإيمانه وصبره، وظل هكذا مقربًا لرسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، حتّى توفي رسول اللَّه فحزن سلمان كما حزن جميع المسلمين، ولكنّهُ واصل السعي والجهاد مع خلفاء رسول اللَّه، حتّى تحققت البشرى من رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يوم الخندق وبدأت راية الإسلام تعلوا فوق أرجاء ممالك كسرى وقيصر.

وأبقاهُ اللَّهُ عزّ وجل حتّى شهد فتح فارس بأكملها، وعاد مرّة أُخرى إلى وطنهِ الأُمّ، الذي خرج منهُ هاربًا باحثًا عن الحقيقة، ولكنّهُ عاد هذهِ المرة أميرًا على المدائن بأكملها، وحقق ما كان يتوقعهُ منه والده ولكن بالإسلام.

والعجب كل العجب عندما نرى ما كان يفعله في أيام الإمارة، فأول ما ذهب إلى المدائن أراد أن يبني لنفسه منزلًا يعيش فيه، ولم يطلب قصرًا من قصور كسرى، فأحضر بناءً واتفق معهُ أن يبني له منزلًا، وقبل أن يبني سألهُ سلمان:

_كيف ستبني البيت الذي أريده؟

وكان البنّاء يعلم زهد وورع سلمان، فقال بذكاء:

_لا تخف، إنَّ بيتك ستظلّله من الشَّمس وتسكن فيه في البرد، إذا وقفت أصاب السقف رأسك، وإذا نمت أصاب الجدار قدميك.. " أي أنَّهُ سيُبنى لهُ بيتًا صغيرًا ليسَ بهِ أي مظهر من مظاهر الترف."

فقال سلمان:

_نعم، ابني لي هذا البيت.

لقد أراد بيتًا صغيرًا لا يكاد يكفيه، فلم يكن يريد الدُّنيا كي لا تلهيه عن ذكر الآخرة، أو يغره كونه أميرًا على المدائن، تلك المدينة العظيمة، فقد كان يقول _رضي اللَّهُ عنه، لمَن يسألهُ عن الحكم والإمارة:

_إن استطعت أن تأكل التراب ولا تكون أميرًا حتّى لو على اثنين فافعل.

فقد كان زاهدًا عابدًا يخاف من الإمارة وغرورها.

وقد كان عطاؤه كبيرًا يصل إلى خمسة آلاف من الدراهم، ومع ذلك كان ينفقه كلّه في سبيل اللَّه، ويتصدق على فقراء المسلمين به كله، ولكن من أين يأكل؟

كان _رضي اللَّهُ عنه، يأكل من عمل يده، الأمير العظيم يأكل من عمل يده، فقد كان يشتري خوصًا بدرهم من المال، فيجد لهُ ثُمَّ يبيعه بثلاثة دراهم، فيعيد درهمًا ليشتري بهِ خوصًا مرّة أُخرى، وينفق درهمًا على بيتهِ ويتصدق بالدرهم الثالث.. فهل يوجد زهد أكثر من هذا سوى في هؤلاء العظام من الصحابة؟

ومن سلمان خاصة، القادم من الرفاهية والغنى.

كان _رضي اللَّهُ عنه، يرتدي الصوف الخشن ويعيش في تواضع وزهد، حتّى أنَّ عمر بن الخطّاب _رضي اللَّهُ عنه وأرضاه، يخرج لاستقبال سلمان عند مجيئهِ إلى المدينة، ولم يفعلها غيره.

وذات يوم وهو سائر على الطريق لقيه رجل قادم من الشام، ومعه حمل ثقيل عليه ويتعبه، فلم يكد يرى أمامهُ سلمان _رضي اللَّهُ عنه_ رجلًا يبدو أنَّهُ من عامة الناس وفقرائهم، حتّى فكر في أن يجعل ذلك الرجل الفقير يحمل عنه ذلك الحمل الثقيل حتّى يصل وجهته، أعطاهُ شيئًا نظير حمله فيستريح من الحمل، وينفق المال على فقير من الفقراء، وأشار الرجل لسلمان بأن يأتي إليه، فأقبل عليه، وقال له الشامي:

_احمل عني هذا الحمل فإنَّهُ ثقيل.

فحملهُ ومضيا معًا، وإذا هما على الطريق بلغا جماعة من الناس يجلسون، فسلّم عليهم سلمان، فوقفوا في احترام قائلين:

_وعلى الأمير السلام.

فقال الرجل:

وعلى الأمير السلام؟!

أي أمير يعنون؟

ولقد زادت دهشته حين رأى بعض هؤلاء يسارع صوب سلمان ليحمل عنه قائلين:

_عنك أيها الأمير.

فعلم الشامي أنَّهُ أمير المدائن (سلمان الفارسي)، فخاف الرجل وأحس أنَّهُ ارتكب شيئًا عظيمًا، وأسرع بكلمات الاعتذار والأسف، واقترب ينتزع الحمل، ولكنّ سلمان هز رأسه رافضًا، وهو يقول:

_لا، حتّى أبلغك منزلك بسلام.

وعاش سلمان حياته بين الزهد والعبادة والجهاد في سبيل اللَّه، حتّى ينقضي أجله وبدأ الموت يقترب منه في عهد عثمان _رضي اللَّهُ عنه، وبينما هو على فراش الموت جاء إليه سعد بن أبي وقاص يعوده في مرضه فبكى سلمان.

فقال له سعد:

"ما يبكيك يا أبا عبد اللَّه؟

لقد توفي رسول اللَّه وهو عنك راض."

فأجابه سلمان:

_واللَّه ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدُّنيا، ولكنّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عهد إلينا عهدًا، فقال:

ليكن حظ أحدكم من الدُّنيا مثل زاد الراكب، وها أنا ذا حولي هذهِ الأساود.

يعني بالأساود الأشياء الكثيرة والأموال العظيمة.

فنظر سعد فلم يرَ حوله إلا جفنة ومطهرة.

فقال له:

يا أبا عبد اللَّه اعهد إلينا بعهد نأخذه عنك.

فقال:

يا سعد اذكر عند اللَّه همّتك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت.

لم يكن هناك من الدُّنيا شيء يميل إليهِ سلمان، ولا يستطيع تركه في لحظة، أو تتعلق بهِ نفسه حبًا وطمعًا في خيره، إلا شيئًا كان يحرص عليه أبلغ الحرص، ولقد ائتمن عليهِ زوجته، وطلب إليها أن تخفيه في مكانٍ بعيد وأمين.

وفي مرض موته وفي صبيحة اليوم الذي مات فيه، ناداها:

_أعطيني الأمانة التي ائتمنتك عليها.

فجاءت بها، وإذا هي قليل من المسك، كان قد ربحها في معركة يوم فتح (جلولاء) فاحتفظ بها لتكون عطره يوم مماته.

ثُمَّ طلب منها قليلًا من الماء، ووضع المسك فيه، ثُمَّ ملأه بيده، وقال لزوجته:

_انثريه حولي، فإنَّهُ يحضرني ويلتف حولي الآن خلق من خلق اللَّه، لا يأكلون الطعام، وإنما يحبون الطيب.

فلما فعلت قال لها:

_أغلقي عليَّ الباب وانزلي.

ففعلت ما أمرها به.

وبعد حين صعدت إليه، فإذا روحه المباركة قد فارقت جسده ودُنياه، ليلتحق بأصحابه وحبيبه رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، إلى الجنّة التي تشتاق إليه، ليس له مثيل بين العالمين إلا القلائل من العظماء والمؤمنين.

فقد قال عنهُ علي _رضي اللَّهُ عنه وأرضاه، بعد موته:

"ذاك امرؤ منّا وإلينا أهل البيت، مَن لكم بمثل لقمان الحكيم؟ أوتي العلم الأول، والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحرًا لا ينزف."

فهذهِ هي بعض من بحر في قصة هذا المؤمن الباحث عن الحقيقة، الذي ترك الغنى والرفاهية وخرج يبحث في أرجاء الأرض عن الحق، وعن الإيمان والسعادة في الدُّنيا والآخرة.

إنَّهُ (سلمان الفارسي) أول أهل فارس إيمانًا بالإسلام.

إنَّهُ (سلمان الفارسي) صاحب الكتابين القرآن والإنجيل.

إنَّهُ (سلمان الفارسي) صاحب فكرة الخندق في غزوة الأحزاب.
إنَّهُ (سلمان الفارسي) صاحب الصخرة التي تنبأ عندها الرسول _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بفتح أرجاء الأرض.
إنَّهُ (سلمان الفارسي) أشبه الناس بعُمر بن الخطاب _رضي اللَّهُ عنه، في زهده وورعه وعدله.
إنَّهُ (سلمان الفارسي).. الباحث عن الحقيقة.

خاتمة

سلمان الفارسي _رضي اللَّهُ عنه، يُكنَّى أبا عبد اللَّه، من أصبهان، عايشَ المجوسية والنصرانية واليهودية قبيل ظهور الإسلام، وظلَّ يبحث عن الدين الحق إلى أن هداهُ اللَّه إليه، فأسلم _رضي اللَّهُ عنه، عند قدوم النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، إلى المدينة، ومنعه الرّق من شهود بدر وأحد، وأول غزوة غزاها مع النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، الخندق، وهو صاحب فكرة حفر الخندق في تلك الغزوة الشهيرة

قال عنهُ الذهبي في السِّيَر: "كان لبيبًا، من عقلاء الرجال وعُبَّادهم ونبلائهم".

وقال ابن عساكر: "هو سلمانُ ابنُ الإسلامِ، أبو عبد اللَّه الفارسي، سابق الفرس إلى الإسلام، صحب النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وخدمه وحدَّث عنه."

تمّت بحمدِ اللَّه

مالك بن دينار

جلس الإمام مالك، وهو أحد أكبر الأئمة المسلمين، الذين يقصدهم طلاب العلم في كل مكان؛ ليستفيدوا من علمهم، ويتعلموا منهم أمور دينهم.

قال الإمام لهؤلاء الطلاب:

_سأروي عليكم قصتي، وهي قصة تدل على رحمة اللَّه بعباده، وقبول توبتهم.

أنصت الطلبة وهم ينتظرون باهتمام هذهِ القصة، فبدأ يرويها:

كنت منذُ زمنٍ طويل وفي شبابي من أكثر أهل الأرض فُجرًا وكفرًا، فكنت أشرب الخمر في كل لحظة وفي كل وقت، وأرتاد الأماكن السيئة ولا أتزوج، فكنت أعيث في الأرض فسادًا، وكنت أعمل كحارس للشرطة في الأسواق، كنت أضرب الناس بلا سبب، وأفرض الإتاوات بدون وجه حق، حتّى جاء يوم ورأيت فيهِ أحد الرجال الذي يرتدي ملابس بالية، ويتعلّق بثوب غني من الأغنياء يرتدي ملابس فاخرة، ويقول له:

_أعطني دراهمي، إنَّ بناتي في المنزل لا يجدن ما يأكلنهُ.

ولكنّ ذلك الغني ضرب الرجل وأخذ منهُ دراهمهُ القليلة.

وما زال الرجل يقول:

_أعطني دراهمي لأجل أطفالي.

فقال الغني:

_إنَّكَ مدين لي بهذهِ الدراهم، ولم تردها منذُ مدة ولآخذنها الآن.

فتوسل إليهِ الرجل، وهو يقول:

أستحلفك باللَّهِ أن تعطيني الدراهم لأطعم أطفالي.

ولكنّ الغني لم يأبه بهِ، فرّق قلبي لذلك الفقير وذهبت مسرعًا.

قلت للغني:

أعطه دراهمه!

أجابني قائلًا:

إنها نقودي أنا، قد أخذتها ولن أعيدها.

فضربته حتّى أوقعته على الأرض، وأخذت منه تلك النقود عنوة وأعطيتها للفقير.

وقلت له:

اذهب وأطعم أطفالك.

فأخذ الفقير النقود وحمل ابنته الصغيرة، ونظر إليّ ودعا لي بأن يرحمني اللَّه ويتقبل مني هذا العمل الصالح.. وعندما كان يجرى نظرت إليّ الطفلة الصغيرة فلا أدري ماذا حدث؟

ولكني أردت أن أصبح أبًا ويكون لي طفل أرعاه، فذهبت أبحث عن امرأة أتزوجها، فلم يقبل أحد أن يزوجني ابنته؛ لسمعتي السيئة، فذهبت إلى السوق واشتريتُ جارية ثُمَّ أعتقتها وتزوجتها.

بالفعل رزقني اللَّهُ بطفلة صغيرة أسميتها فاطمة، وكنت في ذلك الوقت أسعد أهل الأرض، وتعلقّت بها تعلّقًا شديدًا حتّى أصبحت لا أتركها، وأعود مسرعًا لبيتي كي أبقى معها، ومرت أعوام قليلة حتّى بلغت الثالثة وبضعة أشهر.

عدت إلى البيت كعادتي يوميًا، وأمسكت بها ورفعتها بين ذراعي، وجعلت أداعبها وألاطفها وألعب معها.

فجأةً وبدون سابق إنذار، لم تعد تلعب، هززتها وناديتها فلم تجبني، وسقط الروع في نفسي حتّى جاءت أمها وسألتني:

_ماذا هناك؟

فقلت لها ملتاعًا:

_إنَّ فاطمة لا ترد عليّ.

فنظرت إليها وأمسكت بها، ثُمَّ قالت بصوتٍ باكٍ صارخةً:

_لقد ماتت فاطمة!

أحسست وقتها بأنني قد فقدت روحي وقلبي، ولم يعد لي حاجة في هذهِ الدُّنيا.

ولم أستطع الإمساك بنفسي بعد ذلك، وقررت العودة مرّة أُخرى لحياة السكر والعربدة، ولكن أكثر مما سبق، فأصبحت في كل يوم أظل أشرب نهارًا وليلًا.. وأزيد في الأفعال الماجنة، ثُمَّ جاء يوم وقررت بيني وبين نفسي، وقلت:

_لأسكرنَّ اليوم سكرًا لم أسكرهُ من قبل حتّى أموت.

وبالفعل، ظللت أشرب وأشرب حتّى فقدت الوعي من كثرة شرب الخمر، ورأيت فيما يرى النائم رؤيا عجيبة غيرت مجرى حياتي.

رأيتني في أرض المحشر يوم القيامة وأنا أقف، لا أدرِ ماذا أفعل؟

أو ماذا أقول؟

يا للهول! أهذا يوم الحشر والحساب؟ ماذا سأفعل؟ ومن بعيد فاجأني ثعبان ضخم أسود اللون يفتح فاه، ويجري نحوي بسرعة ويهجم عليّ، فتملكني الرعب، ثُمَّ جريت بسرعة وبشدة وهو يجري ورائي، ويطلق الفحيح المخيف ويزداد رعبي، وهو يكاد يلحق بي، ثُمَّ رأيت رجلًا عجوزًا جدًّا وضعيفًا يجلس على مفرق طرق، فجريت نحوه، صرختُ:

_أنقذني يا شيخ!

فقال لي بصوتٍ حزينٍ ضعيف:

_لو أستطيع لفعلت.

فقلت بفزع:

_ماذا أفعل؟

أجابني بصوتٍ واهن:

اذهب في هذهِ الناحية لعلك تنجو.

وأشار بيدهِ وهو لا يكاد يستطيع رفعها نحو طريق طويل، فجريت فزعًا نحو ذلك الطريق، ولا زال ذلك الثعبان يلحق بي، وبلغ مني الجهد مبلغه.. وجدت نفسي أمام ذلك الشيخ مرّة أُخرى.

فصرختُ:

_أنجدني!

فقال بنفس الحزن:

_لو أستطيع لفعلت، ولكن اذهب في هذا الطريق لعلك تنجو.

فجريت حيث أشار ذلك العجوز، ولا زال ذلك الثعبان الضخم الأسود يجري ورائي بكل سرعة وإصرار، وبلغ مني التعب والجهد مبلغه، لاح لي الأمل من بعيد، رأيت بناءً عظيمًا وقصرًا مهيبًا. اقتربت منه بسرعة، ولا زال ذلك الثعبان يجري ورائي.. رأيت ذلك القصر يمتلئ بالنوافذ الكثيرة، ويطل منها أطفال كثيرون كأمثال اللؤلؤ المكنون.

اقتربت منه أكثر فأكثر، فوجدت أحد الأطفال ينظر نحوي، ثُمَّ يقول:

_يا فاطمة، أدركي أباكِ!

في لحظات وجدت ابنتي الصغيرة فاطمة تأتي مسرعة، وقفت بيني وبين الثعبان، وأشارت له بيدها الصغيرة الناعمة أن يتوقف، ثُمَّ ظلت تبعده عني حتى ابتعد تمامًا عني وذهب.

فجلست أستريح، فإذا بابنتي الصغيرة تأتي إليّ مبتسمةً ضاحكة، جلست فوق قدمي كما كانت تفعل من قبل، فنظرت لها بفرحة وحب.

قلت لها:

_ما هذا الثعبان؟

نظرت لي بحزن وقالت:

_إنَّهُ عملك السيء يا أبي، ظل يكبر حتى كاد يلتهمك.

سألتها متعجبًا:

_فمَن هذا الشيخ العجوز الضعيف؟

فقالت لي:

_إنَّهُ عملك الصالح لم يستطع أن ينقذك، فلقد أهملته حتى أصبح ضعيفًا لا يقدر على حمايتك.

ثُمَّ نظرت إليّ وقالت بألم:

_ألم يحن الوقت يا أبي لترك المعاصي هذهِ كلها، والعودة إلى اللَّه قبل أن يأتي يوم القيامة، ويحاسبك اللَّه على تلك الأفعال السيئة؟

ثُمَّ قرأت الآية القرآنية:

{۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}

[الحديد: ١٦]

استيقظت من نومي فزعًا ولا أدرِ ما أفعل؟ فوجدت أذان صلاة الفجر فقمت مسرعًا وتوضأت وقررت الذهاب للصلاة في المسجد.. ذهبت بالفعل وفي الركعة الأولى وجدت الإمام يقرأ نفس الآية الكريمة:

{۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}

[الحديد: ١٦]

فأحسست أنَّهُ يقولها لي أنا وحدي، وأنّ هذهِ الآية قد رزقني اللَّه بها كي أعود لصوابي مرّة أُخرى، وأحسن من عملي قبل أن يأتي يوم لا ندم فيه، فقلت:

_لقد آن يا ربّ، لقد آن يا ربّ.

ومن بعد هذا اليوم نويت أن أتوب عن كل تلك المعاصي، توبة لا رجوع فيها، وأقبلت على القراءة في القرآن والحديث، وعلوم الإسلام كلها، حتى رزقني اللَّهُ _سُبحانَهُ وتعالى، من فضله.

لقد كان الإمام من أهم السلف الصالح والذي أفاد الكثيرين من عمله، وأصبح له مريدون وطلبة يطلبون علمه، ويأتوه من كل مكان، وذلك لكي نتعلم ألا نيأس من رحمة اللَّه، وأن نتوب لكي يرزقنا اللَّه من عنده بالعفو والرحمة يوم القيامة.. يوم لا ينفعنا فيه سوى العمل الصالح.

خاتمة

فإن قصة مالك بن دينار هذهِ مشهورة، وقد ذكرها بعض أهل العلم للعظة والاعتبار.. منهم ابن قُدامة المقدسي في كتاب (التوابين)، وابن الجزري في كتاب (الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح)، كما ذكرها ابن الجوزي والعجلوني كما في الفتوى المشار إليها.

من الممكن أن تكون القصة صحيحة، ومن الممكن أن تكون غير صحيحة، ولكن العبرة فيها هي الأهم.

فلينظر كل منا إلى عمله، ويبحث عن الصلاح والتقوى والعمل الصالح، قبل أن يفوت الأوان وينتهي العمر.

الأبناء الثلاثة

كان في قديم الزمان رجل صالح وكان لديه ثلاثة من الأبناء، ويمتلك بستانًا كبيرًا به من الثمار الكثير والكثير... كان الرجل الصالح في كل عام وقت الحصاد يأخذ أبناءه الثلاثة، ويذهب إلى البستان ويجمع المحصول بأكمله، ثُمَّ ينتظر الفقراء والمساكين يأتون إليهِ ثُمَّ يوزع عليهم من ذلك المحصول، ومن خيرات البستان، ثُمَّ يبيع الباقي فتُدر عليه أموالًا كثيرة، وكان يوزع على الفقراء من أفضل المحصول فاكهة وخضروات، حتى إنه كان يوزع حوالي ربع الثمار، ولكنّ اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، كان يبارك له في محصوله، فيجده يتزايد كل عام عما قبله، وينتظر الفقراء ذلك الميعاد لكي يذهبوا إليه، ويأخذوا من الثمار، ولكن ذلك لم يكن يعجب أبناءه، وفي يوم من الأيام سأله الأكبر قائلًا:

_يا أبي لماذا توزع كل هذهِ الثمار على هؤلاء الناس مجانًا؟

فقال له الأبّ:

_لأنَّ هذهِ صدقة للَّهِ _سُبحانَهُ وتعالى، لأنّ نعمه علينا كثيرة فلابد أن نشكره.

فقال الأصغر:

_يا أبي لقد تعبنا طوال العام في زراعة هذا البستان، ثُمَّ في حصاده وهم لم يفعلوا معنا شيئًا، وأنفقنا من الأموال الكثير لأجل هذهِ الأرض، ولكي تكون مثمرة فلماذا يأخذون منا؟

فقال الأبّ:

_إنَّ اللَّه هو الذي يخرج من ذلك الحب وتلك البذور الثمار، التي نستخدمها وتنبت منها الأشجار والثمار، وما نحن سوى أسباب لكي تزرع، ثُمَّ إن بقية المحصول تكفينا ويزيد، ونحن من الأغنياء، فلا بُدّ وأن نساعد إخواننا من الفقراء.

فقال الأوسط:

_إذًا لنعطهم من ثمار ليست جيدة، أو ليست على الأقل أفضل ثمارنا.

فقال الأبّ:

_إنَّ هذهِ الصدقات للَّهِ فكيف نعطيه شيئًا سيئًا، لا بُدّ وأن نعطيهم أفضل ما عندنا، ولا بُدّ وأن تعلموا أنَّ اللَّه يبارك لنا في رزقنا لأجل هذهِ الصدقات، فما عند اللَّه يبقى ونزداد من الحسنات.

لكن أبناءه أبدًا لم يقتنعوا بذلك، وكانوا يظنون أنهم إذا باعوا المحصول بأكمله سيكسبون من الأموال الكثير، دون أن يأخذ منه الفقراء.

مرت عدة سنوات وتعب الأبّ، وأصابه المرض فجمع أبناؤه الثلاثة، وقال لهم:

_يا أبنائي، لا بُدّ وأن تكونوا دائمًا من الأخيار، وأنفقوا مما رزقكم اللَّه من فضله، ولا تبخلوا على الفقراء.. فإنَّ اللَّه قد أوصانا بهم، ولا بُدّ وأن تعلموا أنَّ ما بقي لكم من أموال سوف يبارك اللَّهُ لكم فيها، فتشعرون دائمًا بالغنى.

أمَّا لو بخلتم بما لديكم، ستشعرون دائمًا بأنكم فقراء، حتّى ولو كان لديكم الكثير من الأموال، فإنَّ القناعة كنز لا يفنى، ولتعلموا أنّ اللَّه لو أراد بهذهِ الحديقة سوءًا، لأرسل عليها ما يدمرها تدميرًا، فأوصيكم بأن تؤدوا هذا الحق الذي عليكم.

فقال الأبناء:

_سنفعل إن شاء اللَّه يا أبي.

ولم يمضِ الكثير من الوقت حتّى مات ذلك الرجل الصالح، وترك من ورائه أبناءه الثلاثة، والكثير من الفقراء الذين يدعون له بالرحمة.

وجاء وقت الحصاد، فذهب الفقراء إلى الأبناء الثلاثة ليسألوهم أن يعطوهم من الثمار، كما كان يفعل أباهم من قبل، بعد أن يتموا حصاد الثمار.

وقالوا لهم:

_أنهم سوف يأتون عند نهاية الحصاد.

ولكنّ الأبناء الثلاثة بدأوا يتململون منهم، وقابلوهم بطريقةٍ سيئة.

وقالوا لهم:

_عندما يحين الحصاد في يومه.

اجتمع الأخوة الثلاثة مع بعضهم عندما حان وقت الحصاد.

فقال الأكبر:

_إنَّ هؤلاء الفقراء يطمعون بنا، ويريدون أن يأخذوا منا مالنا دون وجه حق.

فقال الأصغر:

_أجل، فقد كان أبونا يتعامل معهم برقة وطيبة زائدة، وكانوا يضحكون عليه بأقوالهم ودعواتهم، ونحن لسنا بهذهِ الطيبة، فنحن نحتاج لأموال كثيرة، فهذا من حقنا، فهم لا يملكون البستان ولم يتعبوا فيه مثلنا، فلماذا نعطيهم من أموالنا ومجهودنا دون وجه حق؟

فقال الأوسط:

_ولكنّا قد وعدنا أبانا أن نتبرع ونتصدق عليهم.

قال الأكبر:

_لنعطهم من الثمار السيئة، ونبيع الثمار الجيدة بثمنٍ عالٍ ونكسب الكثير.

فقال الأصغر:

_لا، لنبيع المحصول كله، ثُمَّ بعد ذلك نعطيهم من المال بعد أن نأخذ ما يكفينا ويزيد.

فقال الأوسط:

_ولكن من الممكن ألا يبارك اللَّهُ لنا في المحصول.

فقال الأكبر:

_كيف ذلك؟.. إننا نتصرف في أموالنا ولا نأخذ من أحد شيئًا، ثُمَّ إننا قد تعبنا.

فقال الأصغر:

_ولكنهم سوف يأتون لنا يوم الحصاد، فلن نستطيع أن نطردهم أو لا نعطيهم منه شيئًا، وإلا ظهرنا بمظهر سيء.

فقال الأكبر:

_فلنقل لهم إنَّ المحصول قد تعفن ولم يخرج أي من الثمار، ولسوء الحظ لم يعد لدينا شيء نعطيه لهم.

فقال الأوسط:

_إذًا سينظرون لشجر الحديقة، وسيجدون الثمار لم تحصد وسنكون قد كذبنا عليهم.

فقال الأصغر:

_إذًا لا بُدّ وأن نذهب قبل يوم الحصاد بيوم أو اثنين، ونجمع المحصول ثُمَّ نبيعه مباشرة، فعندما يأتون لن يجدوا شيئًا وسيعلمون أننا صادقين.

ثُمَّ اتفقوا على هذا الرأي.

وعاد كُلٌّ منهم إلى منزله، وهو يُمنّي نفسه بأموال كثيرة يجمعونها، ووسوس لهم الشيطان وزين لهم هذا العمل، وانتظروا حتى جاء وقت الحصاد، واستعدوا قبل الحصاد بيومين وقرروا الذهاب ليلًا حتّى لا يراهم أحد، فيجمعون المحصول ثُمَّ يبيعونه مباشرة.

في اليوم الموعود، وبعد أن نام الجميع، ذهب الأخوة الثلاثة إلى البستان، وهم يتخفون عن أنظار الجميع، وبهدوء حتّى لا يشعر بهم أحد، وعندما وصلوا إليه، وجدوا شيئًا عجيبًا؛ لقد وجدوا الثمار كلها في الأشجار قد تعفنت وأصبحت فاسدة، فنظروا إليها وهم في غاية الدهشة والحزن.

فقال الأوسط: هل رأيتم؟

لقد فسدت الثمار كلها! ذلك هو عقاب اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، لأننا لم ننفذ وصية والدنا، وضاع كل مجهودنا هباءً، ولم يعد لدينا أموال أو أي شيء.

فقال الأكبر:

إنْ َهُ بالفعل عقاب من اللَّه.

فمر بهم بعض الفقراء وهم في هذهِ الحالة مذهولون!

فقالوا لهم:

_إنّ مَن ينفق على الفقراء والمساكين، يبارك اللَّه له في ماله، فاستغفروا ربكم لعله يتوب عليكم.

فقال الأبناء الثلاثة:

يا ربّ، إننا قد تبنا إليك فسامحنا، وسنعطي الفقراء والمساكين بعد ذلك، ولن نبخل على أحد بأي شيء، فإن الملك لك وحدك، والمال مالك، يا ربّ تب علينا.

الخاتمة

قال تعالى في سورة القلم:

{فَانطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)} [ص: ١٩٦]

لنعلم أنَّ اللَّه يرزق مَن يشاء بغير حساب، فلتؤدِّ حق الفقراء من مالك ليبارك اللَّه تعالى فيه.

أمَّا مَن يبخل ويطمع في كل شيء لنفسه، فعقاب اللَّه واقع عليهِ في الدُّنيا أو الآخرة.

والحمدُ للَّهِ ربّ العالمين.

الثلاثة الذين خُلّفوا

عندما أعلن رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عن غزوة تبوك في المدينة المنورة، وسائر أرجاء أرض الإسلام، كانت تلك الغزوة شاقة على المسلمين كافة، فقد جاءت في عام العسرة، أو عام جدب وفقر على المسلمين جميعًا.. ومع ذلك، خرج مع رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ثلاثون ألفًا من المجاهدين الأبطال إلا عددًا من الناس لم يشاؤوا الخروج.

وعندما عاد رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بدأ كُلٌّ من المتخلّفين عن الغزوة يأتي لكي يبرر غيابه عنها، فكان المتخلفون أربعة أقسام:

القسم الأول: الذين أمرهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، بأن يبقوا في المدينة إمَّا لحماية أهلها أو لإدارة شؤونها، مثل علي بن أبي طالب وابن أُمّ مكتوم وغيرهم.

والقسم الثاني: هم المعذورون أو الضعفاء، الذين لم يستطيعوا الخروج لمرض أو عجز.

والقسم الثالث: مؤمنون ولكن أخطأوا وعصوا اللَّه، وهم مَن سنتكلم عنهم.

والقسم الرابع: المنافقون المذمومون الذين سيعذبهم اللَّه _عزّ وجل، والذين تقدموا بأعذار واهية كاذبة، لم يخرجوا في سبيل اللَّه لأنهم منافقون.

أمَّا المؤمنون العُصاة الذين لم يخرجوا، فكانوا عشرة من الصحابة، قام سبعة منهم وقائدهم (أبو لبابة) بربط أنفسهم في سواري (أعمدة) المسجد، حتى يجيء رسول اللَّه، فمر بهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ورآهم فقال:

"مَن هؤلاء؟"

فأجاب بعض المسلمين: "إنهم أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عن تبوك، وربطوا أنفسهم في المسجد حتى تفك رباطهم يا رسول اللَّه وتسامحهم."

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: "لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتّى يطلقهم اللَّه _عزّ وجلّ، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين."

فذهب بعض المسلمين إلى أبي لبابة في المسجد، وقالوا له ما قال رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عنه وأصحابه فقال:

"واللَّه لا أطلق نفسي من هذا الرباط حتى يطلقني اللَّه عز وجل."

فأنزل اللَّه _عزّ وجلّ، فيهم قرآنًا يعفو عنهم، بأنهم قد قاموا بعملٍ سيئ وآخر حسن، فقد آمنوا باللَّهِ ورسوله وأخطأوا في موقف فاللَّه غفور كريم. وبالفعل غفر اللَّه لهم وبدأ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، في أن يجلس ويأتي له مَن تخلفوا وكان معظمهم من المنافقين المعروف نفاقهم، وأخذوا يتعللون بأعذار كاذبة كثيرة،

وكان رسول اللَّه يقبل منهم عذرهم ويترك الأعذار الحقيقية للَّهِ يحاسبهم عليها.

وبقي ثلاثة من الصحابة الكرام لم يعتذروا حتّى الآن، مَن هم هؤلاء الثلاثة؟

ماذا فعلوا؟

ولماذا أنزل اللَّهُ فيهم قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين؟ أسئلة كثيرة لمَن أحبَّ أن يعلم ويتعلم، فليقرأ معنا هذهِ القصة المثيرة ويتعلم منها الدروس.

كان (كعب بن مالك) في المدينة المنورة، عندما أعلن رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عن غزوة تبوك، لم يكن يريد التخلُّف أو عدم الذهاب إلى الغزو مع رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فقد كان من الصحابة الذين لم يتخلفوا عن غزوة من الغزوات، التي غزاها رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، عدا بدرًا لم يحضرها ولم يكن هناك عتاب لمَن لم يحضر بدرًا؛ لأنَّ المسلمين لم يكونوا يعرفون أنها ستحدث معركة.

كان هذا العام عام جدب في المدينة، ولكن كان (كعب) في أفضل أوقاته وأيسر حالاته المادية والجسمانية، ولأوّل مرّة يصبح لديه راحلتين، لذا عزم _رضي اللَّهُ عنه، على الخروج مع رسول اللَّه إلى الغزو واستعد لذلك فلم يكن لديه عذر في البقاء.

كان الوقت حارًّا جدًّا وبدأت المزروعات تنضج، وجاء وقت الحصاد، فكان (كعب) يؤجل تجهيز العدة للسفر حتّى يجمع الثمار وكلما تذكر الغزو، قال في نفسه: أنا قادر على تجهيز عدتي وسلاحي في أي وقت.

وعندما جاء وقت الرحيل مع رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وبدأ الناس في الخروج مع رسول اللَّه، وجد (كعب) نفسه لم ينتهِ من جهازه فقال في نفسه: سوف أنتهي منهُ سريعًا ثُمَّ ألحق رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، والمجاهدين في خلال يوم أو يومين.

ظلّ (كعب) يحاور نفسه وينوي الخروج ولكنّهُ لم يفعل، فقد وسوس لهُ الشيطان فجعلهُ يتكاسل عن الذهاب، حتّى مر الوقت سريعًا ولم يلحق بهم في تبوك.

وبعد فترة من الوقت وجد (كعب) نفسه في المدينة، وكل مَن حوله من الرجال الباقين إمَّا ضعفاء أو مرضى أو منافقين معروفٌ نفاقُهم، أو ممن سمح لهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، في البقاء، وشعر بالحزن الشديد؛ لأنَّهُ بقي مع أنَّهُ ليس لديه أي عذر في البقاء، وبدأ يشعر بالحزن والألم لأنَّهُ لم يلحق برسول اللَّه والجيش المجاهد. وبدأ الوقت يمر عليه بطيئًا وهو ينتظر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولا يدرِ ماذا سيفعل عندما يعود الجيش من تبوك؟ وماذا سوف يقول أو بماذا سيعتذر؟

وعندما وصل رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، إلى تبوك لم يجد (كعب) مع المسلمين فقال: ما فعل كعب؟

فأجاب عبد اللَّه بن أُنيس:

يا رسول اللَّه، لم يأتِ ليجلس مع زوجته ويتنعم في المدينة، ولم يبقَ إلا المنافقون.

فرد عليهِ معاذ بن جبل:

بئس ما قلت يا عبد اللَّه، هذا ليسَ صحيحًا، يا رسول اللَّه، إننا لم نرَ من كعب إلا كل خير منذ إسلامه.

فسكت رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولم يعلق على ما قاله عبد اللَّه ومعاذ رضي اللَّهُ عنهما.

وصلت أخبار عودة رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ومعه جيش المسلمين إلى المدينة مرّة أُخرى، بعد انتهاء الغزوة بفرار المشركين من أمام المسلمين.

بدأت المدينة تستعد لاستقبال الجيش المنتصر، ولكنّ كعبًا كان في أسوأ حالاته، فلقد بدأت الهموم تراوده بشكلٍ كبير، وأصبح يقول في نفسه:

ماذا سوف أقول لرسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، غدًا؟

وكيف سوفَ أستطيع تفادي غضبه؟

فبدأ يسأل كل أصحاب الرأي ممن حوله من أهله: بماذا يعتذر؟

وما العذر الذي يمكن أن يقبله رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، حتّى لو كان عذرًا كاذبًا، فقط كي لا يغضب رسول اللَّه.

وعندما وصل رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، إلى المدينة وذهب إلى المسجد كعادته عندما يعود من الغزو، ثُمَّ ركع ركعتين للَّهِ عز وجل، وبدأ في استقبال المعتذرين، فمنهم المنافقون الذين كذبوا على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فقبل أعذارهم كما قلنا من قبل، ولكنْ عندما اقترب كعب من المسجد، قرر أن يقول الحقيقة مهما كلّفهُ الأمر، فهو لن يكذب على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فمَن ينجيه من عذاب اللَّه إن كذب على رسوله؟

دخل _رضي اللَّهُ عنه، المسجد واتجه نحو رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ثُمَّ قال:

السلام عليكم يا رسول اللَّه.

فرد الرسول الكريم السلام، ونظر إليهِ مبتسمًا مغاضبًا في الوقت نفسه، وقال:

تعالَ.

اقترب كعب من رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، حتّى جلس بين يديه، فقال له الرسول الكريم:

ما خلّفك؟

ألم تكن قد ابتعت ظهرًا؟ (هل كان لديك فرس أو شيء تركبه لتحارب عليه؟)

فقال كعب رضي اللَّهُ عنه:

بلى، إني واللَّه لو جلست عند أحد غيرك من أهل الدُّنيا، ورأيت أني سأخرج من سخطه وغضبه بعذر لاعتذرت، ولئن حدثتك حديثًا صادقًا تغضب عليَّ فيه، وأرجو في هذا الصدق عفو اللَّه ومغفرته. واللَّه يا رسول اللَّه، لم أكن أقوى أو أيسر من قبل مثلما كنت عندما تخلّفت، ولا عذر لي.

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

أمَّا هذا فقد صدقت، فقُم حتّى يقضي اللَّه فيك.

فقام _رضي اللَّهُ عنه، وخرج من عند رسول اللَّه، فأسرع وراءه بعض من الرجال، فقالوا له:

واللَّه إننا لم نرك قد ارتكبت ذنبًا قبل هذا.

وقال آخر:

لماذا لم تعتذر إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، كما اعتذر باقي المخالفين؟

لعلهُ كان قَبِلَ عذرك.

وظل هؤلاء القوم يؤنبونه حتّى فكر أن يعود إلى رسول اللَّه، فيكذب في قوله ويعتذر إلى رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولكن خطرت في باله فكرة، فقال:

هل هناك من المخلفين مَن لم يقل عذرًا مثلما فعلت؟

فرد عليه الرجال:

أجل، هناك رجلان قالا مثل ما قلت.

فقال كعب رضي اللَّهُ عنه:

وبماذا أجاب عليهم رسول اللَّه؟

فرد عليه أحدهم:

لقد قال لهم رسول اللَّه مثل ما قال لك.

فقال كعب رضي اللَّهُ عنه:

من هما هذان الاثنان؟

فقال الرجل:

إنهما مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي.

فقال كعب في نفسه:

واللَّه إنهما رجلان صالحان حاربا مع رسول اللَّه في بدر، وقد غفر اللَّهُ _سُبحانَهُ وتعالى، لأهل بدر، واللَّه لا أكذب على رسول اللَّه، ولا أسير على طريق المنافقين، بل أسير على طريق الصالحين.

ثُمَّ مشى مبتعدًا، ولم يكذب في قولهِ أمام رسول اللَّه، وبعد ذلك علم كعب أنّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، قد أمر المسلمين ألا يتكلموا مع الثلاثة بأمرٍ من اللَّه.

أصبحت الدُّنيا حولهم _كعب وصاحبيه، غير التي يعرفونها، فلقد أصبح الناس لا يتكلمون معهم أو يتعاملون معهم، ولكنهم كانوا يعلمون أنَّهُ اختبار من اللَّه عزّ وجل، ولكنْ لا يعلمونَ متى سيعفو اللَّهُ عنهم ويغفر لهم؟

طال الوقت ولم يتغير شيء، وبدأ الثلاثة يشعرون بالألم الشديد؛ لأنَّ أحدًا لا يكلمهم، فجلس مرارة وهلال في بيتهما لا يخرجان إلى الناس، ويبكيان ندمًا على ما فعلاه، ويدعوان اللَّه أن يغفر لهما.

أمَّا كعب فلم يقبل بالجلوس في منزله، بل أصبح يخرج في الطرقات ويذهب إلى المسجد، فكان يُصلّي خلف رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وينتظر في كل صلاة أن يعفوَ عنه.

وعندما كان يرى رسول اللَّه، كان يُسلّم عليه، ويقول في نفسه:

هل حرّك الرسول شفتيه برد السلام أم لا؟

ظل الوقت يمر عليه ثقيلًا شديدًا، ومر أكثر من ثلاثين يومًا.

يمر اليوم بطيئًا، لا يدرون ما يفعلون، حتى ضاقت الأرض على كعب بما رحبت، وفي ليلةٍ، خرج من بيته واتجه نحو بيت أبي قتادة

رضي اللَّهُ عنه، وتسلق جدار المنزل، ثُمَّ رأى أبا قتادة، فقال له كعب:

يا أبا قتادة أستحلفك باللَّهِ هل تعلم أني أُحبُّ اللَّه ورسوله؟

ولكنّ أبو قتادة لم يجب على السؤال، ولم يشأ أن يرد على كعب، فقد أمرهم رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ألا يتكلموا معه، ولكنّ كعبًا لم يترك أبا قتادة إلا بعد أن يجيبه، وأخذ يعيد عليه السؤال حتّى نظر إليهِ أبو قتادة وقال:

اللَّهُ ورسوله أعلم.

صدمت الإجابة كعب ولم يدرِ ما يفعل فبكت عيناه، فها هم المسلمون وحتى أقربهم إليهِ يشكون في صحة إسلامه، ولكن ماذا يفعل؟

عليه أن يصبر وينتظر أمر اللَّه عز وجل.

وفي يومٍ من الأيام كان رجلًا يمشي في السوق وهو غريب عن المدينة، رجل من الشام وتوقف يسأل الناس:

أين كعب بن مالك؟

فظل الناس يشيرون لهُ حتّى وصل إلى كعب، الذي كان يسير في السوق كعادته بعد أن بلغ منه التعب والحزن مبلغًا عظيمًا، فتوجه إليه ذلك الرجل وسأله:

هل أنت كعب بن مالك؟

فنظر له كعب وعرف أنَّهُ غريب، فقال له:

نعم أنا كعب ماذا تريد مني؟

وكيف تعرف اسمي؟

فقال الرجل بصوتٍ منخفض:

إنَّ معي رسالة لك خذها واقرأها، فسأل كعب:

ممن هذهِ الرسالة؟

فقال الرجل:

إنها من ملك الغساسنة (مملكة الشام)، فتعجب كعب _رضي اللَّهُ عنه، من هذهِ الرسالة المريبة وفتحها، وقرأ فيها هذهِ الكلمات:

أمَّا بعد، فقد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، يقصد رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، ولم يجعلك اللَّه بدار هوان أو مضيعة الحق بنا نواسيك.. (أي تعالَ إلى مملكتنا لتعيش بيننا وتترك أرض المسلمين.)

فقال كعب رضي اللَّهُ عنه:

إنَّ هذا أيضًا من البلاء والاختبار من اللَّه عز وجل، يدعوني ملك الغساسنة للذهاب إليهِ ليقول على رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وعلى الإسلام أنَّهُ يطرد أصحابه.. واللَّه إنها لفتنة!

ثُمَّ قام من فورهِ حتّى رأى نارًا موقدة فألقى فيها الرسالة، ونظر إلى الرجل الذي حمل الرسالة، وقال:

عُد إلى الذي أرسلك، وقل لهُ إنَّ أصحاب محمد رسول اللَّه لن يخونوا اللَّه ورسوله مهما كان البلاء، وإنما ما أنا فيهِ اختبار من اللَّه ليرى هل أصبر ليغفر لي أم لا؟

مشى ذلك الرجل وظل الحال على ما هو عليهِ، حتّى أتمّ في هذهِ العزلة وذلك العقاب أربعين ليلة، حتّى جاءه رسول من عند رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقال له:

إنَّ رسول اللَّه يأمرك أن تعتزل زوجتك ولا تقربها، فقال كعب _رضي اللَّهُ عنه، مسرعًا:

هل أطلقها أم ماذا أفعل؟

فقال له الرجل:

لا بل لا تقترب منها فقط، ولقد أمر رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، هلال ومرارة بذلك أيضًا،

فقام _رضي اللَّهُ عنه، على الفور وذهب إلى زوجته وقال:

اذهبي والحقي بأهلكِ وابقي عندهم حتّى يشاء اللَّه، ويقضي أمرًا كان مفعولًا.

ولم يتردد لحظة _رضي اللَّهُ عنه، في تنفيذ ما أمر بهِ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وكذلك فعل صاحباه على ما بهما من غم.

ولم يكن قد تبقى لهم غير زوجاتهم ليتحدثوا إليهنَّ، ولكنّ زوجة هلال ذهبت إلى رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقالت له:

يا رسول اللَّه، إنّ هلال بن أمية شيخ كبير لا يوجد لديه مَن يخدمه، فهل تكره أن أبقى معهُ لأخدمه؟

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

لا، ولكن لا يقربكِ.

فقالت رضي اللَّهُ عنه:

واللَّه إنَّهُ لم يقترب مني مُنذُ حدث ما حدث، يا رسول اللَّه، إنَّهُ لا زال يبكي منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

فذهب على الفور بعض أهل كعب إليه، وقالوا له:

يا كعب، استأذن رسول اللَّه أن تبقى زوجتك معك كما فعل هلال.

فقال كعب:

واللَّه لا أستأذن رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، في زوجتي، فماذا سيقول وأنا رجل شاب أقدر على خدمة نفسي بنفسي، حتى يقضي اللَّهُ أمرًا كان مفعولًا.

ومرت بعد ذلك عشرة أيام أُخرى منذ ذهبت زوجة كعب لمنزل أهلها، وبذلك مر عليهم ثلاثة وخمسون يومًا منذ أن توقف الناس عن الحديث إليهم.

وفي الليلة الخمسين، أصبح شعور كُلٌّ من الثلاثة أنَّ الدنيا أصبحت صغيرة جدًّا وضيقة عليهم، حتّى إنّ صدورهم قد ضاقت عليهم، وضاقت عليهم الأرض رغم اتساعها الكبير.

وفي تلك اللحظة، وكعب يجلس على سطح منزله، سمع من بعيد من ناحية مسجد رسول اللَّه بعد صلاة الفجر صوتًا يأتي من بعيد، يصرخ قائلًا:

يا كعب أبشر، يا كعب أبشر!

علم كعب أنَّ اللَّه _سُبحانَهُ وتعالى، قد غفر لهُ وسامحه، فلم يتمالك نفسه من الفرح وسجد للَّهِ شكرًا، ووصله بشير آخر، فعلم أنّ اثنين من الرجال جاءا يبشرانه، أحدهما جاء على فرسه مسرعًا، أمَّا الآخر فقد صعد الجبل وصاح يبشره، فذهب كعب مسرعًا وأخذ معه ثوبه وأعطاه لصاحب الصوت الذي بشره أولًا، ثُمَّ ذهب مسرعًا إلى المسجد ليقابل رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

وكل مَن قابله من الناس أصبح يقول لهُ:

هنيئًا لك توبة اللَّه عليكَ يا كعب.

فدخل المسجد على رسول اللَّه، وكل المتواجدين داخل المسجد فرحين بعفو اللَّه عن كعب وهلال ومرارة، وقام طلحة بن عُبيد اللَّه مسرعًا إلى كعب واحتضنه وهنأه، وكذلك فعل الكثيرون، ثُمَّ ذهب كعب إلى رسول اللَّه مسرعًا، وجلس تحت قدميه وقال:

السلامُ عليك يا رسول اللَّه.

فرد رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، السلام، وقال وهو يضحك، يبدو عليه الفرح:

أبشر بخير يومٍ مرّ عليك مُنذُ ولدتك أُمّك.

فقال كعب:

أمن عندك يا رسول اللَّه؟

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

لا، بل من عند اللَّه.

وكان سرور رسول اللَّه عظيم بمغفرة اللَّه لأصحابهِ الثلاثة، واستدار وجهه يتلألأ بالنور، فأسرع كعب وهو لا يدرِ ما يفعل فقال:

يا رسول اللَّه، إنّ من توبتي أن أتصدق بكل ما أملك من مال.

فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

أمسك عليك بعض مالك.

فقال كعب:

أحتفظ بما أعطاني اللَّهُ من غزوة خيبر إنْ شاء اللَّه. يا رسول اللَّه، إنما غفر اللَّهُ لي وأنجاني لأنني قد صدقتك في القول، واللَّه لا أكذب ما أحياني اللَّه، وأقول الصدق دومًا.

وقال كعب لأصحابه: واللَّه ما أنعم اللَّهُ عليَّ بنعمة، أعظم من صدقي لرسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وأنني لم أكذب عليه مثل المنافقين، ويعذّبني اللَّه، فقد قال اللَّه عن الذين كذبوا عليهِ إنهم رجس وسيعذبهم اللَّه.

أمَّا نحن الثلاثة فقد تقبّل اللَّهُ منّا توبتنا ورحمنا، وهو خير الراحمين.

ولقد ذكرنا اللَّهُ في القرآن ليسَ على أساس أننا تخلفنا عن الغزو، ولكن تخلفنا عن الذين ربطوا أنفسهم في المسجد في البداية، وغفر اللَّهُ لهم ولرسوله.

الخاتمة

يجب علينا أن نعلم أنّ الصدق ينجينا من المهالك، كما أنجى هؤلاء الصحابة الكرام، وألا نتعجل، فسوف يغفر اللَّهُ لمَن يخطئ طالما اعترف بخطئه ولم يَتَمَادَ، وألا نتبع الشَّيطان ومَن يحولون رشوتنا من الكافرين، مهما كانت الظروف التي نحن فيها، كما فعل كعب _رضي اللَّهُ عنه، عندما لم يقبل عرض ملك الغساسنة بأن يذهب إليه، لأنَّهُ متأكد من أنه قد أخطأ واعترف بخطئه، وأنَّ اللَّه يعاقبه ليغفر له الخطأ، وأنَّ اللَّه سيغفر تلك الخطيئة مهما طال الزمن، لأنّ الإسلام دين مغفرة.

وكان ذلك اختبارًا من اللَّهِ _عزّ وجلّ، ودرسًا يستفيد منه المسلمون في كل مكان وزمان، أنّ الصدق هو الطريق الوحيد لمغفرة اللَّه ورحمته.

ولنتعلم أن نتصدق، فإنّ الصدقة تمحو الذنوب وتغسلها ويتقبلها اللَّه عزّ وجلّ.

وقد أنزل اللَّه سورة التوبة، وسميت كذلك لأنها نزلت بشرى من اللَّهِ لهم وتشريفًا لصبرهم، وتكريمًا لهم على صدقهم مع رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

ولنعلم أنّ اللَّه يغفر الذنوب في كل مرة ما دام التائب صادقًا في توبته، فإنّ أبا لبابة _مثلًا، كان قد تخلف في غزوة بني قريظة من قبل تبوك، وربط نفسه في المسجد حتّى يتوب اللَّه عليه، وبالفعل تاب اللَّهُ عليه، ثُمَّ عاد وارتكب نفس الخطأ في غزوة تبوك كما ذكرنا، وربط نفسه في المسجد مرّة أُخرى، ومرة أخرى تاب اللَّهُ عليه وغفر له.

وأراد أن يتصدق بماله كله، ولكنّ رسول اللَّه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، أخبرهُ أن يتصدق بثُلث مالهِ فقط. وبعد ذلك لم يفعل إلا خيرًا في إسلامه رضي اللَّهُ عنهُ وأرضاه.

إنَّ الإسلام لا يغلق باب التوبة مطلقًا مهما فعل المرء، لأنَّ الطريق إلى اللَّه مفتوح دائمًا لمَن أراد الإيمان حقًا.

ولنتعلم أنَّهُ مهما كانت الحياة السهلة، والراحة والكسل أشياء جميلة ومريحة، فإنّ الإنسان قد خلقه اللَّه للدعوة وللعبادة والجهاد والعمل، فهذهِ هي الأشياء التي سيكافئنا اللَّه عليها ويرزقنا جنّته إن شاء سُبحانَهُ وتعالى.

قال تعالى:

{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)} (التوبة: ١١٨-١٢٢)

صدق اللَّهُ العظيم

تمت بحمد الله

فهرس

إهداء..... ٥

المقدمة ٧

أصحاب الأخدود ٩

أبرهة الحبشي ٣٩

غزوة مؤتة ٦١

سلمان الفارسي ٨٣

مالك بن دينار ١١٣

الأبناء الثلاثة..... ١٢٣

الثلاثة الذين خُلّفوا..... ١٣٣